من بلاغة التقييد بالجار والمجرور

**في القرآن الكريم
(بالمعروف نموذجاً)**

إعداد الدكتورة

هدى أحمد محمد زين

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

القاهرة - جامعة الأزهر

من بلاغة التقييد بالجار والمجرور في القرآن الكريم (بالمعروف نموذجًا)

هدى أحمد محمد زين

قسم البلاغة والنقد - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة -
جامعة الأزهر - مصر

البريد الإلكتروني: Hodazeen654@gmail.com

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى بيان بلاغة استخدام لفظة "المعروف" المجرورة بالباء والواقعة قيدًا في القرآن الكريم، مع بيان أسرارها ولطائفها، وسر التعبير بها دون غيرها، مع إثبات الإعجاز القرآني في استخدامها، وبيان دورها في إشاعة روح المحبة والتآلف، والاجتماع، والرضا والسكينة، وفي وضع منهج إسلامي قائم على أسس راسخة وثابتة في المعاملة، مع المسلمين وغيرهم. وقد انتهجت في دراسة هذا الموضوع المنهج التحليلي التكاملي.

وتبين من الدراسة أنه قد جاءت لفظة "المعروف" مجرورة بالباء في تسعة عشر موضعًا في القرآن الكريم، جاء منها أحد عشر موضعًا في سياق الحديث عن الأحكام التشريعية وخاصة سياق العلاقات الأسرية، ليدل على ملازمة المعروف للمؤمن في جميع الأحوال، وعدم انفكاكه عنه مع تأكيد المعنى، وكذلك لإفادة تحقيق المحبة والتآلف والاجتماع، وعدم التفرق ونشر السكينة والطمأنينة، وتكريم المرأة ورفع شأنها خاصة في معاملة المجتمع لها؛ لأنها النواة الأولى لتكوين الأسرة المسلمة، وجاء القيد أيضًا "بالمعروف" في سياق نبذ العادات الجاهلية السيئة كالتعننت والظلم، وعدم العدل والجور، كما أنه بالتوازي مع ذلك

ورد لفظ (بالمعروف) ثماني مرات في سياق الحديث عن المؤمنين مدحًا ودعوة
للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يدل على ضرورة وحتمية الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر.

الكلمات المفتاحية: بلاغة - التقويد - الجار - المجرور - بالمعروف

The Eloquence of Modification with Prepositional Phrases in the Noble Qur'an: The Prepositional Phrase bil ma'rūf as a Model

Hoda Ahmed Mohamed Zain.

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Female Students, Cairo, Al-Azhar University, Egypt

Email: Hodazeen654@gmail.com

Abstract:

This research seeks to explain the eloquence of the use of the word ma'rūf (kindness) in the prepositional phrase bil ma'rūf (with kindness; kindly), reveal its secrets and subtleties, and determine the reason for using it rather than others. The study shows the Qur'anic inimitability in its use and explains its role in spreading the spirit of love and harmony, meeting, contentment and tranquility and in developing an Islamic approach based on solid and stable foundations in dealing with Muslims as well as others. This study, which applies the integrative analytical approach, shows that the word ma'rūf appears after the preposition "ba" (with) in nineteen positions in the Holy Qur'an, eleven of which come in the context of talking about legislative rulings, especially the context of domestic relations, to indicate that ma'rūf (kindness) always remains with the believer in all circumstances. In addition, it conveys a sense of love, harmony, and unity; spreads tranquility and reassurance; and

honors women and raises their status in society since the woman is the nucleus of the Muslim family. The prepositional phrase bil ma'rūf has been used in the context of rejecting bad pre-Islamic customs such as injustice and oppression. It has also been mentioned eight times in the context of praising the believers and calling for enjoining good and forbidding evil. This indicates the necessity and inevitability of enjoining good and forbidding evil.

Keywords: rhetoric - modification – preposition – noun/noun phrase following a preposition - bil ma'rūf (with kindness; kindly)

المقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد ﷺ، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ثم أما بعد،،،

فإن دراسة القرآن وتدبره والبحث في بلاغة نظمه لمن أجل الموضوعات وأشرفها؛ لأنها تتعلق بكتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١) لذلك وقفت العقول عاجزة عن الوصول إلى الإتيان بمثل هذا الإعجاز المبين، فقد جاء القيد في القرآن الكريم مفيداً لكثير من الأسرار البلاغية، وقد تتبعت لفظة (بالمعروف) قيدياً فلاحظت مجيء لفظ (المعروف) صريحاً مجروراً وغير مجرور في القرآن الكريم في سبعة وثلاثين موضعاً^(٢)، وقد ورد أيضاً فيما ورد من مشتقاتها للدلالة على قيمة المعروف في أنواع المعاملة بين الناس.

ولذلك ورغبة مني في المشاركة في محاولة الكشف عن بلاغة القيد بهذه اللفظة في القرآن الكريم رأيت أن أقوم بدراسة طرف منها في هذا البحث، ووقع اختياري على دراسة ما جاء منها مجروراً بالباء (بالمعروف) في القرآن الكريم وهي تمثل تسع عشرة آية فقط من هذه الآيات.

(١) سورة فصلت آية: ٤٢.

(٢) آيات البقرة ١٧٨، ١٨٠، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣ مرتين، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٦٣، وآل عمران ١٠٤، ١١٠، ١١٤، والنساء ٥، ٦، ٨، ١٦، ٢٥، ١١٤، والأعراف ١٥٧، والتوبة ٥٧، ٧١، ١١٢، والحج ٤١، والنور ٥٣، ولقمان ١٥، ١٧، والأحزاب ٦، ٣٢، ومحمد ٢١، والممتحنة ١٢، والطلاق ٢ مرتين، ٦.

وقد اخترت هذا الموضوع لما فيه من تنوع في الدلالة، وتناسب مع السياق، بالرغم من عدم انفكاكه عن كمال المعنى.

وتظهر أهمية الدراسة من خلال ربط اللغة بالدلالات والمعاني من خلال قدرته على إيجاد وعي رشيد، وذلك لما تضمنه من اتساع في المعنى، وغنائه بالأسرار والدقائق، فأصبح ذا قدرة على التغيير لما هو سيئ من العادات المذمومة، والتي غلب عليها التعنت والظلم، وكبت للحريات وخاصة فيما يتعلق بالمرأة والأولاد، فضاعت حقوقهما وجعلت الأسرة تعيش في جو من القلق، وعدم الاستقرار، والرضا بالذلة والهوان، بل ولم يقتصر التقييد (بالمعروف) في القرآن في تغيير العادات الجاهلية فحسب، بل في قدرته على مواكبة كل العصور فهي لفظة تحمل معها معاني التجديد في كل الأزمنة والأمكنة؛ ليشعر الإنسان بمدى أهميته في حياتنا، وقدرتها على حل جميع المشكلات التي تواجه الأفراد، أو الأسر، أو المجتمعات، بل والأمم أيضاً، كما أن هذا القيد لم يقتصر على ذلك فحسب بل كان له دوره في ترسيخ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره من أخص أوصاف المؤمنين .

لكل هذه الأسباب وقع اختياري على هذا الموضوع وأسميته:

((من بلاغة التقييد بالجار والمجرور في القرآن الكريم [بالمعروف] نموذجاً))

وإذا كانت دراسة القيود في القرآن الكريم قد بُحِثَتْ إلا أنني اطلعت على هذه الدراسات، فوجدتها تدرس القيود بجميع أنواعها بينما لم أجد من أفرد القيد في لفظ (بالمعروف) بدراسة مستقلة تجلي جميع جوانبه.

ومن أبرز تلك الدراسات:

١- (بلاغة القيود في سورة النساء والمائدة) د/ أحمد إسماعيل - رسالة ماجستير في جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢- بلاغة القيود في سورتي البقرة وآل عمران د/ فتحي عبد القادر فريد - رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر ٢٠٠٦م، وتقع في ٤٢٧ صفحة، وتتحدث عن القيود البلاغية في تلك السورتين من مفاعيل وحال ونعت وتوكيد وغيرها.

٣- (بلاغة القيود في سورة لقمان والسجدة والأحزاب) للباحث/ حمدي حسين محمد، رسالة ماجستير في جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية ٢٠٠٨م.

٤- (بلاغة القيود في القرآن الكريم) د/ عادل الأكرت، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، بنين جرجا، العدد الثامن عشر، ج ٦، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

وهذه الدراسات وإن تناولت بعض شواهد الدراسة إلا أنها لم تضعها في إطار ما درسته في هذا البحث .

واتبعت في دراسة هذا الموضوع المنهج التحليلي التكاملي، والذي يقوم على حصر الآيات التي وردت فيها لفظة (المعروف) مقيدة بحرف الجر (الباء)، وقراءتها قراءة متأنية، ثم العمل على استجلاء المعاني واللطائف التي أوحى بها القيد، مع ربطه بسياق الآيات قبلها أو بعدها، مع بيان سبب النزول - إن وجد - وبيان السر في اختيار لفظة (المعروف) دون غيرها، ومع الإشارة إلى الأسرار البلاغية للقيد به، ثم بدأت بالأكثر ورودًا للتقييد (بالمعروف) وهي العلاقات الأسرية، ثم تنيتها بالحديث عن المؤمنين، مع عدم إغفال دور النظم العالي للقيد به وعدم وفاء غيره عنه في موضعه.

وقد قسمت بحثي إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، ثم خاتمة، ثم ثبت لأهم المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

أما المقدمة: فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهجه، وخطته.

أما التمهيد: فذكرت فيه نبذة عن تعريف المعروف، والقيد، والتقييد بالجار والمجرور (بالمعروف)، وتوظيفه في النظم القرآني.

أما المبحث الأول: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن العلاقات الأسرية.

ويشتمل على ثلاثة مطالب، هي كالاتي:

المطلب الأول: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الحديث عن النكاح وتمعنة الطلاق.

المطلب الثاني: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الرضاع والنفقة بعد الطلاق، وعدة المتوفى عنها زوجها.

المطلب الثالث: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الحديث عن الوصية والوصي.

المبحث الثاني: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن المؤمنين.

المطلب الأول: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن مدح المؤمنين.

المطلب الثاني: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن دعوة المؤمنين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن الإحسان في القصاص.

أما الخاتمة: فأذكر فيها أهم النتائج التي توصلت إليها ثم أدليها بثبت لأهم المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

وقد واجهت صعوبات أثناء سيرتي في هذا البحث المبارك، فإن البحث في القرآن الكريم ليس من السهولة بمكان فهو نص جليل، وقائله جليل، فهو يحتاج منّا إلى مزيد من التدبر والتفكير، والغوص في المعاني حتى نحصل على الدرر النفيسة، والمعاني الدقيقة، كما أن استجلاء الدلالات المختلفة واستخراج دقة النظم من موضع لآخر لهو من الصعوبات التي واجهتني في البحث، وكذلك إيجاد الفوارق أو الروابط بين قيد وما يناظره أو يشابهه كان عقبة أعانني الله عليها بالاطلاع والتدقيق والمثابرة في فهم النص وبيان بلاغة نظمه وإعجاز قائله سبحانه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).

(١) سورة هود آية: ٨٨ .

التمهيد

نبذة عن المعروف، والقييد، والجار والمجرور (بالمعروف) وبلاغة توظيف القيد في النظم القرآني

أولاً: المراد بـ(المعروف) لغة واصطلاحاً، وأهميته:

دار (المعروف) في اللغة حول الألفة، والقبول، والأنس، والسكينة.

فعرفه ابن فارس بقوله: "العين والراء والفاء أصلان، أحدهما: على تبايع الشيء بعضه بعضاً، والآخر: على السلام والطمأنينة ... لأن من أنكر شيئاً توحش منه ونبا عنه"^(١).

وعرفه صاحب الكليات بتعريف يكاد يكون قريباً من هذا حيث يقول: "المعروف كل ما سكنت إليه النفس واستحسنته لحسنه عقلاً، أو شرعاً، أو عرفاً فهو معروف"^(٢).

ومن خلال هذه التعريفات في اللغة نجد أنها اتفقت في أن (المعروف) هو الشيء المأنوس، والمتداول بين الناس؛ لأنه لا يحتاج إلى دليل، كما أن شعابه واسعة، والقريب إلى النفس.

أما في الاصطلاح فهو: "الفعل الذي تألفه العقول، ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي"^(٣).

ونجد أن التقييد بالجار والمجرور في (بالمعروف) قد وظف بعناية كبيرة، وذلك لما تضمنه من اتساع في المعنى، واحتوائه على دلالات غنية بالأسرار والإيحاءات .

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مادة (عرف).

(٢) الكليات للكفوي، تح د/ عدنان درويش - د/ محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت (د - ت) فصل (الميم).

(٣) التحرير والتوير لطاهر بن عاشور ١٤٨/٢، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

وجاءت لفظة (بالمعروف) معرفة بـ (أل)؛ لكونها لواحد بعينه فتثبت في النفس الألفة والقبول عند الناس، فلا يتطرق إليها شك، ولا تحتاج إلى دليل؛ لكونها تأنسها الفطرة والعقول السليمة.

كما جاءت لفظة (بالمعروف) مقترنة بـ(الباء)؛ لدالاتها على الملازمة والإلصاق ومما يدل على كثرة تصرفها وقدرتها على الوفاء بأغراض المتكلم، وأحوال المخاطبين، لأنها من الحروف التي اتسع فيها العرب اتساعاً جعل بعض النحاة يصلون بها إلى أربعة عشر معنى^(١).

ووردت (بالمعروف) في الآيات التي معنا بدون ذكر النهي عن المنكر أحياناً، كما ذكر فيها النهي عن المنكر في آيات أخرى، هذا لما بينهما من شدة التلازم؛ وكذلك لأن المعروف متضمن بداخله النهي عن المنكر فهو مذكور ضمناً.

أما الآيات التي ورد فيها الجار والمجرور (بالمعروف) فقد جاءت مختلفة الدلالات بالرغم من اتحاد اللفظة، وهذه الدلالات على النحو التالي:

١- المساواة في الحقوق والواجبات، وعدم الجور مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٢).

٢- القول الجميل والصحبة الحسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣).

٣- المهر أو التزويج الصحيح، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَ صَوًّا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٤).

(١) قد ذكر ابن هشام أن لها " أربعة عشر معنى، أولها: الإلصاق، قيل: وهو معنى لا يفارقها فلهذا اقتصر عليه سيبويه ". ينظر: مغني اللبيب عن كتاب الأعراب لابن هشام، تح د/ مازن المبارك - د/ محمد علي حمد الله، ص ١٣٧، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٩٨م.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٨.

(٣) سورة النساء آية: ١٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٢.

٤- التزويج الصحيح مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (١).

٥- المهر، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢).

٦- النفقة على قدر اليسر والعسر، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣).

٧- النفقة على قدر الإمكان، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٤).

٩- العدل في الوصية مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٥).

١٠- نفقة المطلقة: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

١١- ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٦).

وقد ورد الأمر بالمعروف في سياق الحديث عن المؤمنين في تسع آيات كلها تمدح المؤمنين وتدعوهم للتخلي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي كالتالي:

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٤ .

(٢) سورة النساء آية: ٢٥ .

(٣) سورة البقرة آية: ٢٤١ .

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٣ .

(٥) سورة البقرة آية: ١٨٠ .

(٦) سورة النساء آية: ٦ .

١٢- قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

١٣- ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

١٤- ﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٣).

١٥- ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٤).

١٦- ﴿وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥).

١٧- ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٦).

١٨- ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٧).

١٩- ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾^(٨).

وسيتضح لنا من خلال الدراسة أن قوله (بالمعروف) لم يقتصر على الأفعال الحسنة فقط أو الأفعال الحسنة فقط، بل شمل الأفعال والأفعال لأنهما متلازمان لكي تصبح الأفراد والمجتمعات في تماسك وترابط وشعور بالرضا بين أفرادها.

ثانياً: مفهوم القيد وأهميته، وآراء العلماء فيه:

تناول تعريف القيد كل من علماء النحو، والأصول، والبلاغة، وكل أدلى بدلوه حسب تخصصه، وإن التقى الجميع في كون القيد شيئاً زائداً عن الجملة

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) سورة التوبة آية: ٧١.

(٣) سورة التوبة آية: ١١٢.

(٤) سورة آل عمران آية: ١١٣.

(٥) سورة الحج آية: ٤١.

(٦) سورة الأعراف آية: ١٥٧.

(٧) سورة لقمان آية: ١٧.

(٨) سورة البقرة آية: ١٧٨.

الأصلية المكونة من المسند والمسند إليه، ومع ذلك تغير المعنى بعد وجوده، وأضاف فائدة جديدة على المعنى، وسوف أتحدث عن ذلك بشيء من الإيجاز.

القيد في اللغة معناه: " المنع والحبس والتضييق، فـ(القاف، والياء، والذال) كلمة واحدة وهي القيد، وهو معروف، ثم يستعار في كل شيء يحبس يقال: قيدته وأقيده تقييداً... والتقييد موضع القيد من الفرس ... " (١).

ومن المفهوم السابق للقيد في اللغة نستنتج أن القيد يعني المنع والتخصيص، وهو ضد الإطلاق، أو العموم، أو الاحتمال، أو التوهم، فيصبح المعنى بعد التقييد محددًا وذا خصوص.

أما اصطلاحًا: فاختلف معناه عند النحويين والأصوليين، والبلاغيين، وذلك لاختلافهم في بيان الفائدة منه أو عدمها.

تعريف القيد عند النحاة:

قرر النحاة أن الجملة الأصلية تتكون من مسند ومسند إليه، وما زاد على ذلك فهو فضلة^(٢)، أو يطلقون عليها المنصوبات^(٣)، فالقيد هو: " اسم تذكره بعد أن يستغني الرفع وما يتبعه في رفعه إن كان له تابع، وفي الكلام دليل عليه فهو نصب " (٤).

أي: جاء القيد بعد تمام الجملة سواء كانت الجملة إسمية أو فعلية، وقد ذكر صاحب الأجرومية أنواع هذه القيود وعددها خمسة عشر، وهي: " مفعول به،

(١) مقاييس اللغة مادة (قيد).

(٢) شرح تسهيل الفوائد لابن مالك الطائي، تح د/ عبد الرحمن السيد - د/ محمد بدوي

المختون ٢٦٤/١، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٣) الأصول في النحو لابن السراج، تح د/ عبد الحسين القفطي ٢٢/١، مؤسسة الرسالة،

لبنان - بيروت، (د - ت) .

(٤) الأصول في النحو لابن السراج ١٥٩/١ .

والمصدر، وظرف الزمان، وظرف المكان، والحال، والتمييز، والمستثنى، واسم لا، والمنادى، والمفعول من أجله، والمفعول معه، وخبر كان وأخواتها، واسم إن وأخواتها^(١).

تعريف القيد عند الأصوليين والبلاغيين:

بنى الأصوليون تعريفهم على ما أثبتته النحاة في تعريفهم، وإن زادوا عليهم في ذكرهم للغرض منه، فالقيد عندهم يعني: "هو ما علق على اسم بنعت أو صفة أو غير ذلك مما يخصه على بعض الجمل المرسلة"^(٢).

وجاء البلاغيون فبنوا تعريفهم على ما ذكره النحاة والأصوليون، وزادوا عليها في ذكر الفائدة من القيود، واللطائف والأسرار البلاغية لهذه القيود، بحيث لو عدت هذه القيود لم تحقق تلك اللطائف والأسرار.

فالإمام عبد القاهر (ت ٤٧١هـ) تحدث عن قيمة القيود في الكلام في ثنايا كتابه (دلائل الإعجاز) في مواضع عدة، ومن هذا حديثه عن قيمة القيد إذا دخل عليه النفي حيث يقول: "أنه من حكم النفي إذا دخل على كلام ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه أن يتوجه إلى ذلك التقييد، وأن يقع له خصوصاً تفسير ذلك أنك إذ قلت: (أتاني القوم مجتمعين) فقال قائل: (لم يأتك القوم مجتمعين) كان نفيه ذلك متوجهاً إلى الاجتماع الذي هو تقييد في الإتيان دون الإتيان نفسه حتى إنه إن أراد أن ينفي الإتيان من أصله كان من سبيله أن يقول: (أنهم لم يأتوك أصلاً) فما قولك: (مجتمعين) هذا مما لا يشك فيه عاقل"^(٣).

(١) متن الأجرومية لابن أجيروم، ص ١٦، دار العصيمي، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٢) الواضح في أصول الفقه لأبي الوفاء البغدادي الطفري، تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ٢٥٦/١، ٢٥٧، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٩م.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٧٩.

ثم تحدث بعده الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) عن القيود بشيء من التفصيل مع إفادته منه، فقام بتعريف القيود، فعرف القيد بأنه " تقييد الفعل بمفعول ونحوه لفائدة"، وذكر فائدته، ثم ذكر أنواعه.

ثالثاً: القيد بالجار والمجرور (بالمعروف) وتوظيفه في النظم القرآني:

(الجار والمجرور) في قوله تعالى: (بالمعروف) هو محل دراستنا، وقد قرر النحاة أن " الظرف والجار والمجرور إذا وقعا خبراً أو حالاً، أو صفة يتعلقان بمحذوف تقديره استقر أو مستقر إذ كان يرى أنه قسم مستقل بنفسه يقابل الجملتين الإسمية والفعلية"^(١).

وذكر صاحب اللحة السبب في ذلك هو أن "الظرف والجار والمجرور يتوسع فيهما في الكلام توسعاً لا يكون لغيرهما"^(٢).

كما أثبت شيخنا أبو موسى أن دراسة حروف الجر في القرآن " تكشف لنا جوانب من دقة اللغة، واستخدام القرآن الكريم لكلماتها وحروفها استخداماً بلغ الغاية في دقة التعبير، كما أنه كشف عن طاقة عجيبة تكمن في كلمات اللغة وتراكيبها"^(٣).

ويقول أستاذنا الدكتور/ بسيوني فيود: " وتأتي التوابع والقيود في التراكيب لتحقيق أغراض ومقاصد ومزايا بلاغية يهدف إليها المتكلم ... ووراء التقييد بالجار والمجرور أسرار بلاغية ترجع إلى معاني حروف الجر وإلى ما دخلت

(١) الأصول في النحو ٢٥/١.

(٢) اللحة في شرح الملح لابن الصائغ، تح د/ إبراهيم بن سالم الصاعدي ٥٩٠/٢، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٣) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/ محمد محمد أبو موسى ٣٢٢، مكتبة وهبة، ط ٧، (د - ت).

عليه تلك الحروف فالمزية البلاغية قد تكون راجعة إلى الجار والمجرور معًا، وهو القيد الذي تقيده به الجملة القرآنية^(١).

ومما يلاحظ أيضًا أن (بالمعروف) جاءت حالًا ومجرورة بالباء لكونها للملابسة، فهي تقيده التلبس بالشيء والتمسك به، وعدم الانفكاك عنه، وكذلك لما تفيده من منازعة الأهواء الضارة، والأخلاق السيئة.

ومما يلاحظ أن النظم القرآني أثر التعبير بالجار والمجرور (بالمعروف) وجاءت جميع آياتها في السور المدنية، وخاصة في سورة البقرة، لكونها تنظم مجتمعًا إسلاميًا جديدًا، فوضعت له تشريعات تضمن له الأمن والاستقرار والتآلف والمحبة والاتحاد بوضوح نظم أخلاقية تكون مخالفة وهادامة للعادات الجاهلية الموروثة التي تتسم بالظلم والتعنت، وخاصة فيما يتعلق المرأة، ورفع المعاناة عنها وتكريمها.

وأفاد القيد (بالمعروف) رفع ثقل العادات الجاهلية الضارة وخاصة ما يمارس ضد المرأة من الجور والاضطهاد، ولذلك مدحت أمة محمد ﷺ بالخيرية في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

كما أنه يجيء التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) غالبًا في وسط الآية وذلك ليفيد معنى الترابط، والتعلق ما بين أول الآية وآخرها فيدل ذلك على أهمية التمسك به وعدم الانفكاك عنه.

وربما أتى الجار والمجرور حالًا في القرآن الكريم بلفظ (بالمعروف) وذلك لإفادة الهيئات التي تؤدي بها الأعمال بالمعروف لتحقيق التآلف والاجتماع بين الأفراد والجماعات.

(١) من بلاغة النظم القرآني، تأليف د/ بسيوني فيود ص ٦٧، ط ١٤٣٠هـ - ١٩٩٢م.

وجاء الشرط في معظم آيات القيد (بالمعروف) وخاصة الشرط بـ(إذا) وذلك ليدل على التأكيد على التمسك بالمعروف..

وما كان كل ذلك ليحدث إلا بفضل اللغة وأثرها على المجتمع، فترابط الألفاظ في آيات المعروف، والتعلق الموجود في آيات (بالمعروف) وخاصة اجتماعها مع واو العطف، واقترانها بالجمل الشرطية لدلالة على التأكيد على التعامل بالمعروف بين أفراد المجتمع، ويعد (بالمعروف) بمثابة اللبنة التي إذا غابت تهدم كل شيء أسر وأفراد وجماعات، وحدث التفكك والتشرد وكثر الطلاق، ونهبت الحقوق، وانتشر الحسد والبغضاء بين الأقارب، وكذلك يؤدي إلى انتشار القتل وظلم المرأة وعدم تكريمها، وبخس حقوقها، فلذلك وظف القيد (بالمعروف) في القرآن لتكريم المرأة، ورفع شأنها، والإشادة بدورها في المجتمع وأن عليها حقوقاً ولها واجبات كذلك الرجل.

□

المبحث الأول

من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن العلاقات الأسرية في القرآن الكريم

لما كانت هناك عادات جاهلية سائدة، وكانت ثقيلة على النفس، وتنبو عنها النفس وتكرها، وخاصة ما يتعلق بالمرأة، وذلك لضعفها فمارسوا عليها كل أساليب التعذيب من العنف والتعنت والظلم، والجور، والضرر، حتى أنهم كانوا لا يخاطبونها بالقول الحسن، بل يحدثونها بالسوء والإجحاف في المعاملة، فجاء القرآن ليهدب نفوسهم، من اختيارهم الألفاظ التي يغلب عليها الحب، وبعث التفاؤل في النفوس، والشعور بالرضا والسكينة، والاحترام، وما كان ذلك ليوحد إلا بفضل دقة اختيار القرآن لألفاظه، ومن هنا ندرك السر في اختيار لفظة (بالمعروف) دون غيرها مثل (الود)، وذلك لأن الود تعنى (الحب ... وددت الرجل إذا أحببته)^(١).

ونجد أنه " لا تناقض بين الود والمعروف، فالمعروف يكون لمن نحبه ومن لا نحبه أما الود فلا يكون إلا لمن نحبه فقط"^(٢).

ومع ذلك يأتي إعجاز القرآن في إثارة الجار والمجرور (بالمعروف) في الأحكام التشريعية الخاصة بالأسرة؛ وذلك لأن الزوجين قد يطرأ بينهما مشكلات، وقد يصل بهما الحال إلى الطلاق، ومع ذلك فإله - تعالى - يحث على التمسك (بالمعروف) في حالة الوصل بين الزوجين، وكذلك في حالة الكره أو حالة الطلاق، والاحتفاظ بالود بينما الود يكون في حالة الحب فقط، فمن هنا

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ، مادة (ودد).

(٢) من أسرار التعبير في القرآن الكريم د/ عبد الفتاح لاشين ١٧١، دار الفكر العربي،

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

ندرك قيمة (المعروف) وخاصة في حالة الكره نجد فيها علاجاً لكثير من المشكلات، وحفظاً من التشتت وضياح الأولاد، فلذلك مدح الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِيْنَ اَلْغَيْظَ﴾^(١).

وقد يقال: إن الجار والمجرور (بالمعروف) قد ورد حالاً وله أسرارته البلاغية التي جاءت لعدة وغرض، وهو مدى تعلق صاحب المعروف به، وملازمته له، وعدم انفكاكه عنه في أي حال من أحواله، مع إزالة توهم اتحاد المعنى نتيجة لاتحاد اللفظ ففي كل مرة وردت (بالمعروف) كانت تبث معاني جديدة متعلقة بسياقها، وإن كان أصل معناها اللغوي لم يفارقها في أي حال من الأحوال.

وكذلك " حينما يورد القرآن الكلمات في مواطن حساسة نراها مقصورة على المعنى المتبادر منها في أول الأمر، بل عند إمعان النظر، والتدقيق في الكلمة نجد دلالتها تتسع، وأن لها إشعاعات مضيئة توحى بالمعنى الأهم والمقصود الأدق ".^(٢)

هذا وقد جاء التقييد (بالمعروف) في سياق العلاقات الأسرية في عشر آيات قد ذكرتها في التمهيد^(٣) جملة من الآية الأولى للعاشرة وها هو محل دراستها وتحليلها بالتفصيل والبيان:

(١) سورة آل عمران آية: ١٣٤.

(٢) من أسرار التعبير في القرآن الكريم د/ عبد الفتاح لاشين ص ١٣.

(٣) البحث ص ٢ - ٣ في الآيات: البقرة ١٨٠، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤١، والنساء: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٥.

المطلب الأول: بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن النكاح ومتعة الطلاق:

أولاً: النكاح:

سن الله النكاح، وجعله ميثاقًا غليظًا، فقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١).

وقال ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فالصوم له وجاء" (٢).

وهكذا جاءت هذه النصوص وغيرها للترغيب في النكاح وليعلم الرجل والمرأة أنه قبل الارتباط والزواج فلا بد من معرفة كل منهما ما له من حقوق، وما عليه من واجبات، وإن كان هناك اختلاف في نوعية تلك الحقوق والواجبات بما شرعه الله، وبما اقتضته طبيعة الخلقة بين الجنسين، سواء البدنية أو المعنوية.

ولذلك وضع القرآن الكريم هذا كله، وهي القيود على تلك الأحكام التشريعية الخاصة بالزوجين، ليحقق لأفراد الأسرة الترابط والانسجام.

ومواضع التقييد (بالمعروف) في آيات النكاح هي كالتالي:

١- قوله تعالى: ﴿لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَعَايَشُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٥).

(١) سورة النساء آية: ٢٠، ٢١.

(٢) مختصر صحيح البخاري للألباني ٣/٣٤٩، ط ٧ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع —

الرياض ١٤٢٢هـ — ٢٠٠٢م.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٢٨.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٢.

(٥) سورة النساء آية: ١٩.

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

فهذه الآيات راعيت فيها الترتيب حسب ورودها في المصحف، وكذلك لأن قوله تعالى: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ تعد اللبنة الأولى التي يبنى الزوجان عليها حياتهما الزوجية، بحيث تجعلها أسرة سعيدة في كل زمن ومكان، وتتبثق منها بعد ذلك الأحكام التشريعية والفروع بما يحقق ذلك المعروف.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

ترابطت هذه الآية مع الآيتين اللتين تسبقها مباشرة، وهي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٣).

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ الآية معطوفة على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ لتناسبهما وترابطهما ؛ لأن كلا منها تربص وانتظار لأجل.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ نزلت هذه الآية بسبب أنه "كان عادتهم في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليلحق الولد بالزوج الجديد"^(٤).

(١) سورة النساء آية: ٢٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٨.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تح د/ أحمد البردوني - د/ إبراهيم أطفيش، ١١٨/٣،

دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

وهذا ما أشار إليه القيد في أفعال التفضيل في قوله: ﴿أَحَقُّ﴾ "تنبهًا على أنه إن كان ولا بد من الطلاق فليكن رجعيًا" ^(١) وهذا الرجوع لن يتحقق إلا بوجود شرطين هما :

- ١- ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.
- ٢- ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾؛ لأن الرجوع وفي نية أحدهما عدم الرضا بالرجوع فهذا يؤدي إلى خلل وتزعزع في الحياة الزوجية
ثم عطفت جملة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ على قوله السابق ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ لتناسبها معها، إذ إن القرآن يحث على ردهن، وعدم البينونة، ويحث على الترابط والاستقرار، ولذلك قيدها بالشرط للتوثيق والتأكيد على الإصلاح بينهما والرجوع .

ثم بدأ يذكر حقوق المرأة المهضومة، والمغتصبة في حالة ردهن والاستقرار، فالضمير في (لهن) راجع للأزواج؛ لأن المطلقات لم يتبق بينهن وبين الرجال علاقة حتى يكون لهن حقوق وعليهن حقوق " . ^(٢)

وذكر الجملة بالإسمية للدلالة على التأكيد على الاهتمام بالمرأة، وإعطائها جميع حقوقها التي حرمت منها في الجاهلية، وهي حقوق ثابتة لها؛ ولذلك قدم الطرف (لهن)؛ لأنه " من الأخبار التي لا يتوقعها السامعون" ^(٣) ثم جاء التشبيه بـ(مثل) لتحقيق الترابط بين المشبه الذي (لهن) والمشبه به الذي (عليهن) فـ(مثل) تدل على المساواة بين الشئيين" ^(٤).

(١) نظم الدرر ٢٠/٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢/٣٩٦.

(٣) التحرير والتنوير لطاهر بن عاشور ٢/٣٩٧.

(٤) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، تح د/ عبد الحميد هنداوي ٢/٧٦، المكتبة العصرية

للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، ط ١، ٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

ولذلك أشاد الإمام عبد القاهر بالتشبيه حيث يقول: " وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يجوحك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك خاطر له، والهمة في طلبه"^(١)، فهذا يجعل المتكلم " يستنتج الروابط والصلات بين الأشياء المختلفة المتنافرة".

فدل على عدم التهاون بحقوق المرأة لقول ابن عباس: " كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقاً من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا"^(٢).

وكان في إثارة النظم القرآني (مثل) دون غيرها لتناسبها مع لفظ (الزوجية)؛ لأنها تشعر بـ(المشكلة والمجانسة والاقتران) فالمراد إذن بـ(المماثلة) هو "لهن من حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها لا في الجنس"^(٣).

والذي أكد على اختلاف تلك المماثلة هو وجود قيد آخر، وهو الحال في قوله: (بالمعروف)؛ لأنه "أفاد إزالة هذه العادات الثقيلة من التهاون بحقوق المرأة والخط من شأنها، وتعاملها بسوء العشرة، ورد الحقوق والواجبات هذه موكولة إلى اصطلاح الناس في معاملتهم، وما يجري عليه العرف بينهم، وتابعة لشرائعهم وآدابهم وعاداتهم"^(٤).

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) علق عليه الشيخ محمود شاكر ١٣٩، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة (د - ت)، البلاغة فنونها وأفانها: حسن فضل عباس ٧٦.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعينبي ١٩/٢٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د - ت): باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث ٦١.

(٣) تفسير البيضاوي للبيضاوي، تح د/ محمد عبد الرحمن المرعشلي ١/١٤١، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

(٤) تفسير المراغي للمراغي، ١٦٦/٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

آثر النظم القرآني التعبير بالجار والمجرور (بالمعروف) لتكتنز معاني كثيرة، وانطوت بداخلها مرام عدة لتفيد القدرة على التغيير فهي تواكب الأزمنة، وتغير الأحوال والعادات، ولكن مقيدة بحدود يرتضيها الشرع والعقل، والعادة الحسنة، ويلقى القبول والارتياح لدى الآخرين، ثم إنها خلقت نوعاً من الترابط والتعلق بين الزوجين سواء بالأقوال الحسنة، أو الأفعال مع اللطف، واللين، والرحمة، كما تأزرت مع الحال وجود (الباء) في إفادة الملابس بنفي (الأهواء، أو العادات، والتعاليم الضارة، وذلك هو الحسن، وهو ما جاء به الشرع نصاً أو قياساً اقتضته المقاصد الشرعية، أو المصلحة العامة التي ليس في الشرع ما يعارضها^(١).

وإذا كان أول الآية يتحدث عن الانفصال وانقطاع الحياة الزوجية بالطلاق، فإن ختام الآية تحدث عن الوصلة، واستمرار الحياة فقال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فاللام تفيد الاستحقاق، وهو معنى لا يفارقها؛ لأن من استحق شيئاً فقد حصل له به نوع اختصاص .

وهكذا نرى أن الآية من أولها إلى آخرها قد ترابطت وتناسقت فيها المعاني نتيجة لتناسق ألفاظها، وشيوع الروابط المختلفة فيها، من التعبير بالجملة الإسمية، والشرط، وواو العطف، وأفعل التفضيل، وهاء الغيبة، والتقديم، والحذف، والجار والمجرور، والحال، والتشبيه " كل هذا أوجد نوعاً من الترابط، والتماسك وإفادة حتمية التمسك بالمعروف، وعدم الانفكاك عنه، وامتزاج الزوجين بعضهما ببعض.

فكان القيد (بالمعروف)، وواو العطف هما بمثابة العقال الذي ربط بين أجزاء الآية ربطاً محكماً مما نتج عنه تحقيق الترابط والتماسك بين أفراد الأسرة، والشعور بالرضا والسكينة بين أفرادها.

(١) التحرير والتنوير ٤٠٠/٢.

ولذلك أشاد أحمد بدوي بهذا القيد بالجار والمجور في قوله (بالمعروف) حيث يقول: إنها توافق الإنسانية السليمة، فهو لا يأمر إلا بما تعترف به النفوس الصحيحة، ولا ينهاي إلا عما تنكره، ولا يحل سوى الطيب، ولا يحرم سوى الخبيث^(١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾^(٢).

هذه الآية التي معنا معطوفة على الآيات التي قبلها، وهي التي تتحدث عن الطلاق، وهو مخالف لأصل الحياة الزوجية؛ لأن الأصل فيها هو استمرارها وعدم انقطاعها، ولكن ربما يطرأ على الأسرة ما ينغص صفوها فيلجأ الزوجان إلى الطلاق وانقطاع الصلة بينهما.

وقد قيل في سبب نزولها أن " جابر بن عبد الله الأنصاري كانت له بنت عم فطلقها زوجها تطليقة، فانقضت عدتها ثم رجع يريد رجعتها فأبى جابر، وقال: طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية؟ وكانت المرأة تريد زوجها قد راضته"^(٣).

وهذه الآية وسبب نزولها يوضحان لنا أن الله سبحانه وتعالى، لم يحرم المرأة من حريتها في أخذ قرارها سواء باستمرار الانقطاع بالطلاق أو مراجعة النفس، ومحاولة الرجوع إلى زوجها مرة أخرى فلا يتم منعها من هذا، وكفل لها كامل حقوقها، فإذا أراد زوجها الرجوع إليها بعد انقضاء العدة فهي تتزوج به بعقد جديد، " والمهر لها، وهي المستحقة له لا حق للولي فيه"^(٤).

(١) من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي ٢١١، نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٥ م .

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٥ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص تح د/ عبد السلام محمد علي شاهين ٧٣/٢، دار الكتب العلمية،

بيروت - لبنان، ط ١، ٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ بالنهي والتحذير من المنع الذي يفعله الولي للمرأة من عدم الرجوع للزوج، لأن عضل معناها: منعها الزواج، أي من "التزويج ظلماً" قيل: الخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء (١)، أي أن "الولي إذا منع حرمة من التزويج فقد منعها الحق الذي أبيح لها من النكاح إذا دعيت إلى كفاء لها" (٢).

فهكذا كانت المرأة في الجاهلية تعاني من التضيق والمنع من حرية الاختيار، أو ضمان حقوقها المنهوبة، حتى في حالة طلاقها؛ فلذلك عقب النهي بجملة شرطية لتفيد التأكيد ومدى التعلق والارتباط الذي بين الزوجين، والحث على الرجوع إليهن مرة أخرى، وأيضاً هذا ما تعاضد معه المجاز المرسل الذي علاقتة ما كان في أزواجهن " فهن لم يصبحن أزواجاً لهم، ولكن لتذكيرهم بحق العشرة، واستمرارها ودوامها، وهذا يظهر أيضاً من التعبير بالفعل المضارع في ﴿يَنْكِحَنَّ﴾ فهو يريد استمرار العشرة سابقاً، وفي المستقبل، وفي الحال أيضاً، ثم أكد على تلك المعاني بشرط آخر بـ(إذا) الدالة على التحقق واليقين، فالرجوع مشروط بالتراضي في قوله: ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وجاء التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في الختام ليفيد الحث على الرجعى للزوج المطلق؛ لأنه فسر بـ(نكاح جديد) (٣) أو (بمهر المثل) (٤) وفي هذا كله دلالة على مدى التعانق والترابط بين الزوجين من ترابط الألفاظ، وكذلك إعلاء من شأن المرأة، وضمنان لحقوقها، وكذلك حسن معاملتها، واستمرار للحياة الزوجية،

(١) تاج العروس مادة (عضل) .

(٢) المرجع السابق

(٣) تفسير الثعلبي للثعلبي تح الإمام علي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ/ نظير الساعدي ١٧٩/٢، الناشر دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م.

(٤) التفسير الكبير ١/٤٥٦.

ودوام العشرة بما عرفه الناس في معاملتهم من الحقوق التي قررها الإسلام أو قررتها العادات التي لا تنافي أحكام الإسلام .

وتآزرت كل القيود في الآية من (الشرط، والمجاز، والحال، وباء الجر) والتي أفادت "نهى الأولياء عن مضارتهن، وترك الحماية الجاهلية، والانقياد لحكم الله في تزويج النساء إذا أوردن النكاح من دون استئذان الأنفة والحماية، بل إذا رضيت بكفء يخطبها فحرام عليكم ظلمها، والتنويب عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشد مجاهدة، وأصدق معاملة" .^(١)

فهكذا وجدت المرأة في التعبير بـ(بالجار والمجرور) (بالمعروف) المتنفس لها من هذه العادات الغاشمة والضارة، وأنست وراقت نفسها ولاقت فيها الدواء والعلاج لاستمرار الحياة مرة أخرى برضا وقبول وصفاء نفس، ورجوع الألفة مرة أخرى بين الزوجين، وضمان الاستقرار والترابط مرة أخرى، وقوة التحمل والصبر على مواجهة المشكلات والصعاب.

ولذلك قال بعد قوله: ﴿إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ جاء بشرط آخر وهو قوله: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ للتأكيد على عدم المنع للأولياء في حالة توافر الزوج الكفء، وهذا هو الأركى والأطهر لكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الفاصلة أيضاً ساندت الحال في أن الله " يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلون"^(٢).

الآية الثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِلْ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبْنَ بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٣).

(١) لطائف الإشارات للتقريبي تح د/ إبراهيم البسيوني ١/١٨٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط ٣ (د - ت) .

(٢) الكشف ١/٢٧٨ .

(٣) سورة النساء آية: ١٩.

هذه الآية مرتبطة بما ورد في سورة البقرة كما قلنا قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١) وكذلك هي شديدة الاتساق بها؛ لأنها تعني الصحبة الجميلة والقول الحسن والجميل، والتشارك بين الزوجين بما تعارف عليه الناس، وإعطائها كل الحقوق المنوط بها زوجها ومن ضمنها المهر، ولا يجوز الأخذ منه، وتكريرها حتى تتنازل عنه بدليل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٢).

وكذلك مرتبطة بما بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَعَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنَا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^(٣) وكذلك ارتباطها بقوله تعالى في سورة الطلاق ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(٤). وهذا الارتباط كله بين الآيات الذي قربه هو السياق اللغوي^(٥).

ثم نأتي للسياق المقامي^(٦) الذي يرجع إلى ما هو لصيق بالآية، وهو قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ ...﴾ الآية وهو سبب نزول الآية التي معنا هو " كان من

(١) سورة البقرة آية: ٢٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣١ .

(٣) سورة النساء آية: ٢٠ .

(٤) سورة الطلاق آية: ١ .

(٥) هو: العبارات المكونة السابقة واللاحقة ذات الترابط النحوي أو المنطقي، ينظر: أثر السياق في اصطفاء التعبير بالسعي والمشى في النظم القرآني د/ أحمد سيد طلحة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م (د - ط) ص ٧ .

(٦) هو: ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته سواء كانت قرائن الخطاب ذاته أم في المتكلم أم في المخاطب أم في الجميع . ينظر: المرجع السابق ص ٧ .

عادة العرب عدم الاكتراث بأمر النساء حتى كانوا لا يورثون البنات احتقاراً
لهن^(١).

فمن هنا جاءت الجملة الحالية في الآية (بالمعروف) متناسبة تمام التناسب
مع أول السورة، وكذلك جاءت مفصلة ما أجمل في سورة البقرة في ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ
الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من حسن الصحبة، وقوله ﷺ " خيركم خيركم لأهله وأنا
خيركم لأهلي"^(٢).

وهذا كله يدل على النهي عن سوء العشرة مع الزوجة، والحث على الرفق
واللطف واللين والرحمة في التعامل معها، فذلك استمالت الآية الكريمة
المخاطب بكل هذه الأساليب لتبعث فيه الاهتمام بالمرأة، والتعامل معها برفق
ولين وحسن صحبة، وحسن معاشرة، وهذا ما يلفت نظره إلى التفجير والبعد عن
تلك الأخلاق السيئة، والتخلي بحسن المعاشرة وإجمال الصحبة سواء بالأقوال
الحسنة أو الأفعال، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾
فيتسمك بهذا المعروف ولا يتركه لهذا عبر بأسلوب إنشائي آخر، وهو الأمر في
(عاشروهن) بصيغة الإلزام لينصحه ويرشده ويحضه على عدم التهاون في
حسن المعاملة والعشرة بين الزوجين، والحث على الامتزاز والتشارك بين
الزوجين؛ لأن المعاشرة تعني (المخالطة والممازجة)^(٣) وهي تكون بين اثنين؛
لذا عبر عنها باسم الفاعل التي عطفت على ما قبلها جملة النهي على جملة
خبرية، ثم حذر تعالى بنهي آخر في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فهذا يوحي بمدى
القهر والتعنت التي كانت تلاقيه في العصر الجاهلي، ومدى التضيق عليها

(١) البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي، تح د/ صدقي محمد جميل ٥١١/٢، دار الفكر –
بيروت، ١٤٢٠هـ .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٠٩/٧ باب موعظة الرجل لابنته لحال زوجها .

(٣) تفسير القرطبي ٩٧/٥ .

سواء بأخذ ميراثها أو عدم تزوجها بعد موت زوجها، كما أن لفظة (العضل) توحى بالضيق والثقل والحبس والمنع فيقال: "أعضل الأمر: اشتد... عضلت فلاناً: ضيقت عليه وحلت بينه وبين ما يريد^(١) أو منعها من التزوج ظلماً^(٢) ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ المراد بالفاحشة "النشوز وسوء الخلق"^(٣). وقيل: الفاحشة: الزنا أو السحاق^(٤).

وهذا الاستثناء قيل منقطع، وقيل متصل، وهو ظرف زمان عام أي: لا تعضلوهم في وقت من الأوقات إلا وقت إتيانهم ... الخ، أو من حال عامة من أي حال من الأحوال إلا في هذه الحال^(٥).

وهذه المعاشرة تكون بـ " توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن تكون متلطفاً في القول لا فظاً ولا غليظاً ولا مظهراً ميلاً إلى غيرها "^(٦).

ثم تعلق القيد في قوله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما أتى بعدها في الآية؛ لأنه " جامع نفى الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة والمعاشرة "^(٧)، وإزالة ما يحس به الزوج من مشاعر الكراهية للزوجة، ويتردد مداخل الشيطان؛ وذلك لأن الكراهة سبب في سوء العشرة، فحرم الله الأخذ من المهر على جهة الإضرار لذلك قال تعالى ﴿أَتَأْخُذُونََّهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبَيَّنًا﴾^(٨).

(١) أساس البلاغة للزمخشري تح د/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م مادة (عضل) .

(٢) تاج العروس مادة (عضل) .

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٢/٢٨، تح د/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ .

(٤) ينظر: روح المعاني ٢/٤٥١ .

(٥) روح المعاني ٢/٤٥١ .

(٦) تفسير القرطبي ٥/٩٧ .

(٧) سورة النساء آية: ٢٠ .

(٨) التحرير والتنوير ٤/٢٨٦ .

ثم جاء بعد الحال بجمل تفسيرية وتعليلية تعضد من الحث على حسن المعاشرة في كل الأحوال حتى في حالة الكراهة، وعدم التعجل بالطلاق، فيحث ذلك على " الصبر على الزوجة المؤذية أو المكروهة إذا كان الأجل امتثال الله بحسن معاشرتها يكون جعل الخير في ذلك جزاء من الله على الامتثال"^(١) والمراد بالخير الكثير: الألفة التي تقع بعد الكراهة^(٢).

ونجد بداية الآية وختامها يحث على حسن معاشرة المرأة، واستمرار الحياة بين الزوجين، والتمسك بالمعروف، وعدم التهاون في التحلي به، والحث على الرفق واللين واللفظ حتى في حالة الكراهة ولقد ساعد كل من تعاقب الأساليب الإنشائية، وكثرة القيود من الجار والمجرور، وواو العطف والجمل التعليلية في تحقيق التماسك والترابط بين الزوجين وعدم التفريط في إعطاء المرأة حقوقها سواء من الأقوال الحسنة، أو الأفعال، كما يفيد الحث على الصبر، وعدم التعجل في إيقاع الطلاق، بدليل أنه عبر بكلمة (شيء) التي أفادت " العموم الذي في لفظه لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء مما يجمل الصبر عليه " ^(٣) ثم إن الحال في قوله (بالمعروف) قد هيا ذهن القارئ للموازنة ما بين سوء العشرة وحسن المعاشرة، فيكتشف مدى الفرق بينهما فيسارع إلى التمسك بالمعروف؛ لأن العين في (المعروف) تفيد استعلاء المعروف على ما عداه .

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ

(١) روح المعاني ٤٥١/٢ .

(٢) روح المعاني ٤٥٣/٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٢٨/٢ .

مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١).

ونجد أن هذه الآية التي معنا وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً مرتبطة ومعطوفة على قوله تعالى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ لأنها تقر نكاح المسلمات الحرائر، أو الكتابيات الحرائر، وعند العجز عنهما حينئذ يلجأ إلى نكاح الإمام المسلمات، وذلك لأن " نفقة الأمة على أهلها إذا لم يضمها الزوج إليه"^(٢).

وربما كان السبب في ذلك أن الرجل قد يكون معه مهر، ولكن لا يستطيع النفقة، فخفف عليه الإسلام ويسر له الزواج بأمة، على خلاف بين الفقهاء ما بين المنع والإجازة.

ولعل الإسلام أيضاً أراد هدم العادات الجاهلية السيئة في كونهم أنهم " كانوا لا يرضون بنكاح الأمة وجعلها حليلة يقضون منها شهواتهم بالبغاء، فأراد الله إكرام الإمام المؤمنات جزاء على إيمانهم، وإشعاراً بأن وحدة الإيمان قربت الأحرار من العبيد"^(٣)، وذلك للقضاء على الزنا، واختلاط الأنساب، ولرفع الامتهان عن الأمة، ولذلك ذيله بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ﴾.

ثم بين لنا كيفية نكاح الإمام وشروطه فقال: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: بإذن ولي الأمر ﴿وَأَتْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: "أدوا مهورهن بما هو متعارف عليه عرفاً وشرعاً"^(٤)، أي: كونها لها نصف مهر الحرة كما قرر

(١) سورة النساء: آية ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/٥.

(٤) فتح القدير للشوكاني ٥١٩/١، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، ط

الفقهاء، ومقابل هذا المهر "أن تكون طيعة له حافظة لعرضه وشرفه باجتناب الفواحش وحفظ النفس"^(١).

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِيَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلِيَهُنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ لأن النساء لهن حقوق من ضمنها المهر الذي فضل به الرجل في قوله ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلِيَهُنَّ دَرَجَةٌ﴾.

إذن فالجار والمجور، وهو قوله (بالمعروف) يبين لنا مدى التخفيف والتيسير الذي أعطاه للرجل في حالة عدم المؤونة المشروعة للمسلمات الحرائر، فشرع له الارتباط بالإماء المسلمات " لصحة النكاح منهن بقليل من المتاع.

فلذلك فسر تلك الحال بقيود أخرى فسرت تلك الحال، فقال: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ هي حال من مفعول ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: حال كونهن عفائف من الزنا^(٢)، وهي " حال من ضمير الإماء، وهو ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ﴾ والإحصان: التزويج الصحيح فهي حال مقدرة، أي: ليصرن محصنات"^(٣) بهذا الزواج، فهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون.

ثم قيد بقيد آخر لتوضيح تلك الحال، وهو قوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو الصفة، والنفي في قوله ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ حال مؤكدة، أي: غير مجاهرات بالزنا^(٤).

ثم جاء بقيد آخر، وهو الصفة والنفي في قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ معطوفة على ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي: ليست مسرة للزنا؛ ليجمع سبحانه في الجملتين الجهر والإسرار بالفاحشة.

(١) تفسير الماتريدي ١٦١/٣، تح د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،

ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) تفسير أبو السعود ١١٧/٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/٥.

(٤) تفسير أبو السعود ١٦٧/٢.

وهذا ما أبرزه الحال (بالمعروف) لتفيد استعلاء الشرع والعقل والعادة الحسنة في القضاء على كل هذه العادات السيئة، وأن الكفاءة تكون في (الدين أولاً) ^(١) فلهذا قال: ﴿مِن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقضى على السفور والتبرج والقضاء على الذلة والاحتقار الذي كان منتشرًا في الجاهلية.

ونلاحظ أن وقوع الجار والمجرور وهو قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ حالًا وارتباطها بالمعاشرة وارتباطها بما بعدها وبما قبلها قد جعل المعاني تتعاقب، كأنها لحمة واحدة " فكل كلمة في النظم القرآني تحتفظ بمكانها الخاص، ومعناها المميز، والسياق هو الحكم في اختيارها، ووضعها في المكان الذي وضعت فيه لا تحس بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو تزيد فيها شيئاً، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها، وهي بحر خضم، ما تؤدي به ذلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء" ^(٢) فنجد أن وجود القيد بالجار والمجرور (بالمعروف) قد أشاع اللطف والرحمة واللين وحسن الصحبة مع الزوجة، والمحبة والإحسان، والألفة وارتياح النفوس، واستمرار الحياة الزوجية، وعدم انقطاعها تناسباً وتناسقاً مع أول السورة المبني على التواصل والالتئام .

ونلاحظ أيضاً مجيء هذه القيود من غير عطف بالواو؛ وذلك ليبين أن كل هذه الصفات متحدة ومتعاقبة في موصوف واحد، وهو الأمة التي بدون هذه الصفات يمنع الارتباط بها أو نكاحها، وأن الزواج الصحيح لا يتم بدون توافر هذه الشروط والصفات.

(١) التحرير والتنوير ١٤/٥.

(٢) من بلاغة القرآن ٨٥.

ثانياً: متعة الطلاق:

وضع القرآن علاجاً لمواجهة الطلاق سواء قبل حدوثه أو بعده بما يحقق الاحترام، والاحتفاظ بالود، ونشأة الأولاد في صورة صحيحة غير مشوهة فناء التعبير بالحال بلفظة (بالمعروف)؛ ليحقق للمرأة حرية الاختيار في استمرار الحياة من عدمها، وعدم إجبارها على شيء، وهذا يعد تكريماً لها، وكذلك وضع لها مدة محددة لهذا الطلاق قصد التخفيف عليها، وعدم حبسها والتضييق عليها، والقضاء على التعنت والظلم التي كانت تعاني منه بالممارسات السيئة عليها سواء من الأزواج أو الأولياء.

وكثيراً ما كان الجار والمجرور (بالمعروف) يأتي في ثنايا الآيات ليعبث روح الرحمة واللفظ واللين والرفق، والإحسان بين التطبيقين.

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١)
هذه الآية معطوفة على الآيات التي قبلها، والتي تتحدث عن المرأة في حالة طلاقها سواء قبل الدخول بها أو بعد الدخول بها، وبين حقوقها في كلتا الحالتين بما يعود عليها بالعدل، وعدم الظلم أو الحيف فقد كفل الإسلام المتعة لها جبراً لكسرها نتيجة لانقطاع الحياة الزوجية ؛ ولذلك قيل إنها تعم المطلقات كلهن، وكانت هذه الآية متناسقة ومناسبة لما قبلها ؛ لأنه لما ذكر سبحانه وتعالى متاع المتوفى عنهن أزواجهن عقبه بمتاع المطلقات تأكيداً للحكم بالتكرير وتعميماً للحكم بعد تخصيص بعض أفرادها فقال ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ﴾ أي " المدخول بهن بأي طلاق كان (متاع) أي من جهة الزوج يجبر ما حصل لها من الكسر بالمعروف أي من حالهما " (٢) .

(١) سورة البقرة آية: ٢٤١ .

(٢) نظم الدرر ٣/٣٨٣ .

فمن هنا يتضح لنا مدى الاتساق بين هذه الآية وما قبلها، فقبل عدة المتوفى نجد أن تحدث عن متاع المطلقة قبل الدخول، ولما كانت لم تتعرض إلى الإفضاء كالمدخول بها عبر القرآن بقوله ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن " المحسن يتمتع بأيسر وصلة في القول دون الإفضاء" (١) .

ونجد أن هذه الآية ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قد قيدت بأكثر من قيد في قوله (بالمعروف) الحال، و﴿حَقًّا﴾ المفعول "وهذا يشير إلى مدى الظلم الواقع على المرأة في العصر الجاهلي بحيث كانوا يستهينون بحقها، ولا يهتمون بعواطفها، فجاء الإسلام، وأراد تكريمها سواء في حالة الحياة الزوجية أو في حالة انقطاعها ؛ ولهذا أثر النظم القرآني الحال في (بالمعروف) ؛ ليثبت أن هذا الحق للمطلقة يكون بحسب العرف لاختلاف أحوال الزوج من حيث الغنى والفقر، ويؤدى هذا الحق بقدر الإمكان، بدون الإضرار بها" .

لذلك نزلت هذه الآية لتثبت هذا الحق ؛ لأنها " نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة، ولم يُسم لها صداقاً ثم طلقها قبل أن يمسه فنزلت هذه الآية، فقال له ﷺ أمتعها ولو بقلنسوتك " . (٢)

ثم أكد تلك المتعة بالتأزر مع الحال في (بالمعروف) بالمفعول به في قوله ﴿حَقًّا﴾ دلالة على استحقاق المطلقة لتلك الحقوق و"مشروعية المتعة، وهي جبر خاطر المطلقة استبقاء للمودة" (٣) وإزالة للضرر الذي لحقها من أثر الطلاق، ولذلك ختمها بقوله ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن المتقي تعني: الوقاية من الضرر والأذى، لأن هذه المتعة حددها الشرع والعقل ووافقت العادات الحسنة، والحفاظ

(١) المرجع السابق ٣٨٣/٢ .

(٢) درج الدرر في تفسير الآي والسور لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني دراسة الفاتحة والبقرة د/ وليد بن أحمد بن صالح الحسين، ٤٠٤/١، ط ١١، مجلة الحكمة ببريطانيا .

(٣) التحرير والتنوير .

على المودة، والاحترام والشعور بالرضا بين الطرفين حتى في حالة الطلاق، وانقطاع الحياة بينهما، ولا تكلف المطلقة فوق طاقة المطلق، بل تراعي حالته سواء في اليسر أو في العسر، ثم جاءت (على) لتفيد استعلاء المعروف، وسرعة العمل به من المتقين.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

في هذه الآية وصية من الله تعالى لمن طلق امرأة وقد عقد عليها غير أنه لم يدخل بها ولم يفرض لها مهراً، فأبان الله تعالى عن حق المتعة لها، فالفقير بقدره والغني بقدره بالمعروف حقاً على أهل الإحسان، " إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها". (٢) والمطلقات في الجملة لهن المتعة حقاً مقررًا من الشرع وذلك لكل مطلقة " وتجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا قول سعيد بن جبير وهو أحد قولي الشافعي" (٣). أما المطلقة قبل البناء وقد فرض لها صداق فإن لها نصفه لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِضَةٌ مِمَّا فَرَضْتُمْ﴾ (٤).

ففي قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وقع لفظ (بالمعروف) بين مفعول مطلق وهو (متاعاً) و(حقاً) وهو حال من الفعل (متعوهن) بيد أن هذه المتعة مطلق مقدارها لم تعين ومن هنا وقع الخلاف في مقدارها.

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، تح/ محمد علي الصابوني ج ٣ ص ٢١٦، طبعة دار التراث العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٢١٦.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٧.

وقوله (حقاً) أفاد الوجود والإلزام بما هو متعارف عند الناس في مقداره، وقال: ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ترغيباً في الأداء، ومديحاً لهم.

وتعلق الجار والمجرور بالفعل (متعوهن) والأصل (متعوهن بالمعروف متاعاً) ونكر المتاع لعدم تعيينه فهو بحسب ما اجتهد فيه الفقهاء وما تعارف عليه الناس؛ لعدم تعيين الصداق من البداية أما ما وقع فيه التعيين فهو ما فرض وعين فيه الفرض ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

والتقييد بكلمة (بالمعروف) يفيد تعويض المرأة المطلقة قبل الدخول عما أصابها من حزن وألم وجبر خاطرها المكسور.

كما أنه أفاد أن الأداء للمتعة يكون بالحسنى وبما تعارف عليه الناس؛ ولذلك قدم الله تعالى قوله ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَىٰ مَوْسِعِ قَدَرِهِ وَعَلَىٰ مَقْتَرِ قَدَرِهِ﴾ وهذا يدل على مراعاة حال المطلق من اليسر والعسر وأنه ليس له مقدار معين شرعاً.

كما أنه جمع بين الرفق بالطرفين (المطلق والمطلقة) حيث راعى الله تعالى حال المطلق وراعى مشاعر المطلقة قبل الدخول بها فخفف مصابها.

وصيغ هذا المعنى الكلي بكلام منظوم حسن الرصف جمع بين الجملة الطلبية وقبلها الجملة المنفية، ثم ذكر شبه الجملة متمثلاً في الجار والمجرور.

وذكر التوابع من الحال والمفعول المطلق وصيغ كل ذلك بأسلوب غاية في جودة الرصف الذي أبان عن فضله أبو هلال العسكري قائلاً: "وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره... ومخالفة الاستعمال في نظمها"^(١).

وكما هو بارز في السياق تتزاحم القيود وتتوالي بدءاً من أسلوب الشرط الذي تقدم جوابه على فعله في قوله سبحانه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمْ

(١) الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ١٧٩، تح د/ مفيد قميحة، طبعة دار

الكتب العلمية - بيروت - لبنان، طبعة ثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

النِّسَاءِ ﴿ ثم توالى المتلازمات من الجار والمجرور في قوله (على الموسع، وعلى المقتر، بالمعروف) وهي قيود جاءت غاية في الدقة والبيان ومراعاة أحوال المطلق.

ثم إن في تعلق قوله: (بالمعروف) بالعامل (متعوهن) أو كما قيل هو متعلق بـ(متاعا) ما يفيد توقف المعنى وتام صحته بذكر الجار والمجرور (بالمعروف)؛ لأنه لو لم يذكر لأبهم المعنى على السامع ولم تكتمل الصورة في ذهنه .

المطلب الثاني: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الحديث عن الرضاع والنفقة بعد الطلاق وعدة المتوفى عنها زوجها
أولاً: الحديث عن الرضاع والنفقة بعد الطلاق:

حينما يقع الطلاق أو حتى قبل وقوعه فإن الزوج هو من اختص بالإنفاق على الزوجة والأولاد بمقتضى القوامة التي اختص بها في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وذلك بتوفير الرزق والكسوة لهم، وكذلك حينما يقع الطلاق فإنه ينفق على الأولاد بما شرعه الله، وبما هو في مقدرته، وذلك لعدم الإضرار بنشأة الولد أو التصغير في إطعامه أو كسوته ويراعي كذلك حال المرأة ما إذا كانت مرفهة أو غير مرفهة مع مراعاة يسر وعسر الزوج في النفقة حسب الأحوال في توفير مرضعة له، وفي حالة الطلاق البائن للمرأة الخيار في إرضاعه، وعدمه، وجاء النظم القرآني بالجار والمجرور (بالمعروف) ليراعي كل ذلك ويدفع الضرر عن الولد والوالدة والوالد، ليتحقق الرضا والسكينة.

[١ - ٢]: يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا

فَصَلًّا عَنِ تَرَاوِضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِضِعُوا
أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ .

ومن الملاحظ أن القيد بالجار والمجرور (بالمعروف) وارد هنا في موضعين
من الآية، وهذه الآية ترتبط بما قبلها، وهي الآيات التي تتحدث عن متعة الطلاق
لتناسبها مع قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢) غير أن السابق قد
أبان فرضية المتعة للمطلقات وهذه أبانت أحكام الرضاع.

وقد بلغ النظم القرآني غاية الإعجاز بذكر القيد بالحال (بالمعروف) في
الموضع الأول في قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ليحسم لنا
هذا الخلاف ويضع تنظيمًا لحياة الأسرة بعد حدوث الطلاق سواء الوالد أو
الوالدة أو الأولاد في حالة الرضاعة، والمحافظة على حالة الإحسان والود،
فذلك عبر بـ(الرضاع).

وهؤلاء المطلقات قد يكون لهن أولاد في سن الرضاع، وكان هناك فرقة بين
الوالدين، فلا بد على الأب من الإنفاق على هؤلاء الأولاد وكسوتهن بما أقره
الشرع، والعرف، والعادات، لأنه في أحوال كثيرة " المرأة المرضع لا يرغب
الأزواج منها؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها" (٣).

والوالدات هن المطلقات بدلالة الحديث عن إلزامه بنفقة الولد والوالدة حال
الرضاع قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وسياق الآيات يناسب المطلقات؛ لأن سياق الآيات التي قبلها تتحدث عن
أحوالهن، وكذلك هذه الآية ترتبط بآية المطلقات في سورة الطلاق وهو قوله

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٤١.

(٣) التحرير والتنوير ٤٢٩/٢ .

تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بِبَيْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرْضِعْ لَهَا أُخْرَى﴾ (١) وإن كنت أرى أنه مع ذلك هذا لا يمنع من دخول الزوجات أيضاً فهي تحتاج إلى النفقة والكسوة بالمعروف بحسب قدرة الزوج وإلى حسن العشرة بما ينطبع ذلك على الأولاد .

وعبر بـ(الرزق والكسوة) للمرأة دون الأجرة حتى لا يتوهم ان كل والدة تجب لها الأجرة على إرضاع ولدها، وفي الطلاق عبر بالأجرة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأن الكلام هناك في المطلقات لا يحتمل غيره (٢).

ويلاحظ أنه قدم (الرزق) على (الكسوة)؛ لأنه "الأهم في بقاء الحياة ومتكرر كل يوم".

ولكن الله تعالى لم يحدد لنا مقدار هذه النفقة على المولود، وجعل (العرف) هو الذي يحددها مراعاة لحال الزوج من الإعسار واليسار، والغنى والفقر، أي: تكون " على الوجه المتعارف المستحسن في الشرع والعرف بحيث لا يكون هناك ضرر على الأم، ولا الأب، ولا الأولاد.

وكما اختلفوا في تفسير (الوالدات) اختلفوا أيضاً في تفسير قوله (يرضعن) فقيل: أنه خبر معناه " الوجوب لبعض الوالدات على جهة الندب لبعضهن" (٣).

وقيل: هو خبر على المشروعية (٤)، يعني يشرع لها الإرضاع وعدمه. وهذا بناء على اختلافهم في الرضاع هل هو حق للمرأة أو حق عليها، والحكم في ذلك هو (العرف) فإذا كان العرف يجري على إرضاع المرأة ولدها

(١) سورة الطلاق آية: ٦ .

(٢) ينظر: تفسير المنار ٣٢٦/٢ .

(٣) تفسير الثعالبي للثعالبي، تح الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

(٤) تفسير القرطبي ١٦١/٣ .

فأصبح واجباً عليها، أما إذا كانت ذات مكانة ومرفهة فيندب في حقها إلا إذا كان الولد لا يقبل غيرها حينئذ يكون واجباً عليها.

أما المطلقة طلاقاً بائناً فلا رضاع عليها، وإنما يكون على الزوج بأجرة المثل، هذا مع يسر الزوج إلا إذا كان الولد لا يقبل غيرها، فتجبر على الإرضاع. (١)

ومن دقائق النظم القرآني أنه سبحانه قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فجمع بين لزوم النفقة والكسوة للولد ووالدته في آن واحد وأثر النظم القرآني التقييد بالحال في قوله (بالمعروف) فأفاد التأكيد على إزالة الضرر بالتقصير، والحث على الاهتمام بالأولاد في حالة الرضاع؛ لأنهم بناءة المستقبل، وبهم تقام الأسر والمجتمعات، والعمل على تحقق الترابط بين أفراد الأسرة من خلال ترابط الألفاظ، فلفظة (المعروف) استدعت كثيراً من المعاني المبهمة لذلك فسرها بقيد آخر، وهو قوله ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إن هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشق عنه ويعجز عنه، ولا تكلف المرأة بالصبر على التقدير في الأجرة، ولا يكلف ما هو إسراف بل يراعى القصد (٢).

فلذلك قال تعالى بعد هذا ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾ أي: " لا تضار المرأة بالتقدير عليها في النفقة وعلى وليدها فنلاحظ وجود ترابط وتناسق بين الجمل، ثم عطف بـ(الواو) جملة تشبيهية تربط بين الوالد، والوارث في إيجاب النفقة والكسوة على المولود، وفي هذا إشارة إلى التلازم بين المولود

(١) المرجع السابق ١٦١/٣ بتصريف.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢٨١/١، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط

ووارثه في الغنم والغرم، والتشبيه أشعر بعدم التفريط في هذه النفقة، وأفادت عدم الإجحاف أو التقدير.

ونجد أن جملة: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قد عطف عليها أربعة جمل بـ(الواو) وهي: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ و﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا﴾، و﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، و﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾؛ لأن (الواو) حرف موضوع للجمع^(١)؛ لأن الكلام معطوف بعضه على بعض بـ(الواو) وهي حرف الجمع فكان الجميع مذكوراً في حالة واحدة كالنفقة والكسوة، والنهي لكل واحد منهما عن مضارة الآخر وإلزام الوارث على مورثه من النفقة.

وفي الموضوع الثاني من الآية تم تقييد الجملة (بالمعروف) في قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فتأزرت الحال (بالمعروف) مع حرف العطف (الواو) لتحقق التناسب والترابط والتعاقب بين (المعروف) وبين أفراد الأسرة، ولتثبت أن المعنى الثاني هو ثابت للأول، يقول الإمام عبد القاهر: " ويأتي في الآية (بالمعروف) تقييد بحال أخرى مكررة للدلالة على مدى الحرص على تمكن الطفل من الرضاع، وضرورة توفير الوالدة ذلك حتى ولو بالإجارة في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فالحال هنا إما متعلقة بـ(سلمتم) أي بالقول الجميل الذي تطيب به النفس ويعين على تحسين نشأة الصبي، وقيل يتعلق بـ(آتيتم) دليل على أن للآباء أن يستأجروا لأولادهم مرضع إذا اتفقوا مع الأمهات على ذلك وهذه سنة جاهلية^(٢).

مما تحقق معه التراضي، والمصلحة من جميع أفراد الأسرة (الوالد — الوالدة — الولد)، واستدعاء الشفقة والحقوق من الوالدين على وليدهما .

(١) الجنى الداني في حروف المعاني للمراي، تح د/ فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم فاضل، ١٥٤، دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان، ط ١، ٤١٣هـ — ١٩٩٢م .

(٢) البحر المحيط ٥١٠/٢ .

ولاحظ الالتفات الوارد في قوله ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾... إلخ وهو خروج من غيبة إلى خطاب، وتلوين في الضمير؛ لأن قبله ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ بضمير التثنية، وكأنه رجوع إلى قوله ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾، ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وكان الهدف منه التنبيه والإيقاظ، والإصغاء، والتأكيد على مصلحة الولد والاهتمام به. وهكذا وجدنا بالآية جملاً طويلة مطنبة ومتناسقة، ومتعلق بعضها ببعض، بحيث سلمت إحداها الأخرى في تلاؤم وتسلسل واتساق تام بين المعاني، أدى فيها القيد الحال، والعطف بـ(الواو) دوراً كبيراً في التأكيد على تحقيق نشأة الطفل نشأة سليمة، ومدى تكاتف الأب والأم في تحقيق ذلك على الوجه الأكمل، وعدم التفريط فيه، وشدة التمسك به؛ لأن الأولاد تقام بهم المجتمعات، ولكي يعيش الجميع في هناءة وسعادة ورضا، وحتى لا نسأل عن ذلك، وكان لذكر الجار والمجرور (بالمعروف) في أول الآية ثم الختم به في قرب نهاية الآية دليلاً على التأكيد على تحقق وجود (المعروف) بين الوالدين وترابطهما، وأنه يكون مصاحباً لهم في جميع الأحوال، سواء عند استمرار الحياة الزوجية أو حتى عند انقطاعها، وكذلك ختامها يناسب (المعروف)؛ لأنه قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ للتحذير من عدم الإنفاق على الأطفال، ومدى ضعفهم؛ لأنهم لا قدرة لهم ولا منعة مما يفعل بهم، ثم حذر وهدد بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مبالغة في الإحاطة بما يفعلونه معهم والاطلاع عليه^(١).

ثانياً: الحديث عن عدة المتوفى عنها زوجها:

وضع الإسلام لنا ضوابط في كيفية تعامل المرأة حينما يتوفى عنها زوجها فأمرها بالعدة بمدة محددة امتثالاً لأمر الله وتخفيفاً عليها، والقضاء على عادات

(١) ينظر: البحر المحيط ٥١٠/٢ .

جاهلية موروثة تقضي بظلمها وحبسها والتضييق عليها بعدم الزواج لمدة حول كامل، فخفض عنها بقضاء ثلث المدة ثم بعد ذلك لها حرية الاختيار في المكوث في بيت الزوجية أو الرحيل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١).

نجد أن هذه الآية مرتبطة بآيات الطلاق التي قبلها، إذ إنها تحدثت في ضمنها عن عدة الطلاق، وهنا يبين أنه " إذا مات الأب ذكر عدة الوفاة، وتتميم لأنواع العدة وقال الحرالي: لما ذكر عدة الطلاق الذي هو فرقة الحياة انتظم برأس آية ذكر عدة الوفاة الذي هو فراق الموت" (٢).

وكذلك تتصل اتصالاً وثيقاً بقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ لأنه "ذكر الرضاع من موت الوالد وأمر الوارث بأن يقوم مقام الوالد في النفقة والكسوة" (٣).

لذلك نفى عنهم التضييق بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ﴾ يريد التزويج فيما دونه من التزين واطراح الإحداد (المعروف) أي: بما أذن فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصداق دون مباشرة العقد لأنه حق للأولياء" (٤).

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٤.

(٢) نظم الدرر ٣/٣٤٠.

(٣) المرجع السابق ٣/٣٤٠.

(٤) تفسير القرطبي للقرطبي، تح د/ أحمد البردوني - د/ إبراهيم أطفيش، ٣/١٨٧.

وذلك لأنهم لو خرجوا قبل انقضاء الأجل كن قد أتين بمنكر، فيجب على أوليائهن وخيار المسلمين أن يمنعهن، فإن لم يستطيعوا ذلك استعانوا بالحاكم لإزالة هذا المنكر^(١).

ثم مجيء جملة الحال في قوله (بالمعروف) أفادت تخفي المدة على المرأة المتوفى عنها زوجها حيث قضى عليكم بثلاث المدة، لأنها كانت سنة في الآية المنسوخة، ولتخليصهم من عادات ثقيلة على النفوس وقيود كانت تغل حياتهم^(٢).

وإذا كانت الآية تتحدث عن عدة الوفاة فهناك آيات تحدثت عن عدة الطلاق كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾^(٤) وقبلها بآيتين جاء الحديث عن الطلاق البائن فقال ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ فكما أن المرأة قد أخذت حربتها في التصرف بعد انقضاء عدتها بالمعروف، فإن المرأة في جميع الآيات التي ذكرتها نالت كرامتها ورعاية الإسلام لها فهي محررة في حال الإمساك والفرار، ويلحظ في قوله (بالمعروف) مكررة في الإمساك والمفارقة ولكن آية البقرة فسرت المعروف بالقيود الوارد بقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ فأبانت ما أبهم بالسياق في آية ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقضي بأن زمام الأمر مع المرأة أما في الآيات الأخرى فمع الرجل فهو الممسك بالمعروف والمفارق بالمعروف، كما تكمن بلاغة النظم

(١) تفسير المراغي للمراغي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١،

١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

(٢) من بلاغة القرآن ٢١١.

(٣) سورة الطلاق آية: ٢.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣١.

هنا في التعبير بالإمساك دون بالإبقاء، وهو ما يؤكد شدة الحفظ للمرأة وصونها، وعبر المولى سبحانه عنه بالمصدر تارة وبالفعل الأمر تارة أخرى فقال: (فإمساك) وقال (فأمسكوهن) وهذا التنوع يزيد من شدة حرص الإسلام على الإبقاء واستدامته، ونكر (المعروف) ليعم الحقوق المادية والمعنوية كلها مع حسن العشرة.

وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ نجد أن لها صلة تشابه بآية أخرى وردت في نفس المعنى وهي ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ فقد عرف الله تعالى لفظ (المعروف) بال التي أفادت العهد الذهني وهو حرية التصرف بالزواج بعد انقضاء عدتها وورد لفظ (معروف) في الثانية منكرًا ليشمل كل مباح لها من زينة وخروج وزواج فهو أعم لإفادة التذكير للعموم والشمول ثم إن الجار (الباء) في الأولى أفاد الإلصاق والمصاحبة لما أبيح لها فعله وهو الزواج الذي يعد عمدة المعروف لحصول العفاف لها به. وجاء الجار في الثانية (من) لإفادة ابتداء الغاية أو التبويض.

المطلب الثالث: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن الوصية والوصي

شرع الله الوصية لتحقيق مبدأ البر والإحسان إلى الأقارب حتى لو كان هناك ميراث؛ وذلك لترسيخ الترابط، وصلة الأرحام وفق ضوابط وضعها وهي كونها في حدود الثلث، ولا تكون للإضرار بوارث إذا تحقق ذلك فلا مانع من الوصية. الآية الأولى: قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وقد أثر النظم القرآني أثر ذكر الوصية للوالدين والأقربين دون غيرهم فقال ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ولعل السبب في ذلك " إنهم كانوا يوصون للأبعدين طلبًا

(١) سورة البقرة آية: ١٨٠ .

للفخر والشرف، ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة فأوجب الله تعالى في أول الإسلام الوصية لهؤلاء منعًا للقوم عما اعتادوه وهذا بين.

والثاني: قال آخرون: إن إيجاب الوصية لما كان قبل آية المواريث جعل الله الخيار إلى الموصي في ماله وألزمه ألا يتعدى في إخراج ماله بعد موته عن الوالدين والأقربين، ولذلك اختلف العلماء بعد نزول آية المواريث هل نسختها أم أن الوصية باقية حتى بعد نزول آية المواريث^(١).

وإذا كانت (الوصية) تعني: "الواو والصاد والحرف المعتل أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيء وصلته"^(٢) إذن فالغرض من الوصية هو إيصال المنفعة إلى الأقارب.

" وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان وقدّم الوالدين لكونهم أرجح في التبديّة بالوصية لأنهم كانوا يوصون بإيثار بعض أولادهم من الموصي لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة"^(٣).

أما قوله: (بالمعروف) والتي يجوز أن تتعلق بنفس الوصية والثاني أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الوصية أي: حال كونها متلبسة بالمعروف لا بالجور"^(٤).

وعلى كلا الوجهين تفيد مدى تعلق الوصية (بالمعروف) أي بالعدل "المعروف بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إضرار بالورثة، ولا تبذير للوصية"^(٥) وقد كتب الله تعالى الوصية على من حضره الموت لإزالة الحقد من

(١) التفسير الكبير ٥/٢٣١.

(٢) مقاييس اللغة مادة (وصا)

(٣) التحرير والتنوير ٢/١٤٨.

(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢/٢٦١.

(٥) المحرر الوجيز ١/٢٤٨.

النفوس والأضغان التي ربما أدت إلى التناحر وإلى كثير من المشكلات، وأيضاً يشير الجار والمجور (بالمعروف) إلى كون الوصية في حدود الثلث وأن لا تضر بوارث، وكذلك يجعل صاحب الوصية ضرورة الحرص على اختيار من هو الأولى بالوصية " لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإن توخى ذلك استحسن الناس فعله ولم يلوموه"^(١).

ولذلك تآزرت (الباء) حرف الملابس مع (المعروف) الحال في إفادة إزالة الجور والضرر، ومنازعة الأهواء في عدم اختياره لمن هو أولى بهذه الوصية، ولذلك فسر (بالمعروف) بـ " العدل الذي لا مضارة ولا تحاسد بين الأقارب بأن ينظر الموصي في ترجيح من هو الأولى بأن يوصي إليه"^(٢) ولذلك جاء قيد آخر ليؤكد على ذلك المعنى وهو المصدر في (حقاً).

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٣).

أمر الله بحفظ مال اليتيم على الوصي عليه فإن وجد فيه راحة عقل بلوغ ورشد دفع إليه ماله وأشهد على ذلك وإنما يكون ذلك بعد بلوغه سن الزواج والرشد وهو بدء الكبر والنضج ونهى سبحانه عن أكل ماله بالإسراف فيه فمن كان غنياً فعليه العفاف عن مال اليتيم بالكلية، ومن كان فقيراً فله أن يأكل بالمعروف والقصد دون إسراف وبذخ.

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢ .

(٢) المرجع السابق ١٤٨/٢ .

(٣) سورة النساء آية: ٦ .

وفي النظم القرآني نجد إيثار كلمة (بالمعروف) التي هي مناط التحليل والبيان ظاهرة في إبراز القدر الجائز للوصي أن يأخذه من مال اليتيم (الموصى عليه) .

يتضح جليًا من نظم الجملة التي ورد فيها ذكر (بالمعروف) وهي ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أن القدر المتاح إنما هو الطعام بدلالة (فليأكل) ويضم إليه الكسوة الضرورية والانتفاع من مال اليتيم على قدر الحاجة الملحة.

ولعل أقرب ما يفسر هذا المعنى دلالة السياق قبله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ فأبان عن النهي عن الإسراف وهو ما يدل بمفهوم المخالفة أن من أكل دون إسراف وتبذير فلا جناح عليه.

ولا يحتج بعدم الأكل بالمعروف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(١) وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^(٢) وذلك أنه من العام الذي خصص بهذه الآية التي أباحت الأكل بالمعروف في حق الوصي الفقير لشدة الحاجة والإعسار وكونه قيمًا على مال اليتيم فله أن يأخذ على قدر الضرورة والحاجة وهي تقدر بقدرها من غير إسراف ولا تبذير، وعليه فقوله سبحانه ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ جاء استثناء في حق الوصي على اليتامى، وورد النهي العام في حق عموم الناس بما فيهم الأقرباء دون الوصي الفقير فضلًا عن أن قوله سبحانه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ يدل على ضم المال إلى المال، وقوله ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ورد في النهي أخذ الأموال واكتنازها ظلمًا، وجاء القيد فيها (ظلمًا) حال من (يأكلون)؛ ليدل على أن الأكل من مال اليتيم قد لا يكون ظلمًا إذا كان من

(١) سورة النساء آية : ١٠ .

(٢) سورة النساء آية : ٢ .

الوصي الفقير فهو ليس بظالم بل أباح الشرع له ذلك بالمعروف، ومعلوم ومقرر أن أخذ الوصي وغيره من مال اليتيم محرم في المطلق إذا كان على سبيل الاكتتاز والظلم أما إذا كان من وصي فقير بالمعروف دون سرف فلا بأس.

ويلحظ أن في التعبير بـ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما يسمى عند البلاغيين بـ (حسن التقسيم) وذلك أنه قسم الوصي لغني وفقير، وجعل العفة عن مال اليتيم في حق الوصي الغني وإباحة الأكل بالمعروف من ماله في حق الوصي الفقير.

ويظهر من قوله سبحانه: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معنى التضمين في الفعل (يأكل) التي تعني (يأخذ) فهناك علاقة بين الأكل والأخذ تحوي التعلق القائم بين السبب والمسبب فالأكل مسبب عن الأخذ للمال باعتبار المال أصل والطعام مسبب عنه.

ونجد الترابط جلياً بين إيثار الجار والمجور (بالمعروف) في الآية والسياق المقامي واللفظي في الآيات السابقة واللاحقة فترآك تلحظ قوله تعالى ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾^(١) فجاء (المعروف) منكرًا نعتًا لـ (قولاً) وهو المفعول المطلق من (وقولوا) لإفادة العموم شاملاً كل قول استحسنته الشارع الحكيم.

أما الجار والمجور (بالمعروف) هنا فقد ورد القيد مرادًا بعينه لا غنى عن ذكره معرفاً مفيداً لبيان طبيعة الأخذ من مال اليتيم بالنسبة للوصي، فالمعروف هنا مخصوص بقدر يسير، ثم تجد بلاغة النظم القرآني في تكريره للقول المعروف في جزء من الآية (٨) من سورة النساء أيضاً بقوله ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وذلك في سياق الحديث عن حضور أولى القربى واليتامى والمساكين لتقسيم تركة المتوفى، وإنما وقع التكرار للتأكيد على عدم زجر الحاضرين

(١) سورة النساء جزء آية: ٥ .

لضعفهم وحاجتهم أسوة بمعاملة اليتامى بالحسنى والقول اللين في آية التحليل التي بأيدينا .

ومما ورد متشابها في الصياغة في سياق الحديث عن العدة قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَّا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾^(١) فهي عن التصريح بالنكاح في مدة العدة وأباح التلميح وهو ما أفاده إيثار المفعول المطلق ونعته (قولا معروفا) ونكر المعروف لأنه عام يخضع لعرف الناس في ألفاظ التلميح والتعريض بالنكاح.

وكما ورد الجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن الوصية والوصي فقد جاء في نظم قرآني آخر يسمو ببلاغته وذلك في سياق وصية الله لعباده، ومن ذلك قوله تعالى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾^(٣) فالأولى خطاب للغني المعطي تجاه السائل الفقير ولم يخصص فيه المعروف فجاء منكرًا لإفادة شمول كل قول حسن، والثانية خطاب للمنافقين لحثهم على الطاعة والقول الحسن وصيغ كالسابق بالتكثير للتحريض على كل طاعة وقول حسن محمود، ونظيرهما أيضًا قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ جُؤَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٤) فجاء إيثار لفظ (معروف) مع جره بحرف الجر (الباء) المقدر ليشمل التعبير تحريضًا على كل صدقة ومعروف وإصلاح بين الناس، ومن هنا نعرف قيمة التكثير لبعض ألفاظ القرآن.

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٦٣.

(٣) سورة محمد آية: ٢١ .

(٤) سورة النساء آية: ١١٤.

المبحث الثاني

بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن المؤمنين

التقييد بالجار والمجرور في القرآن الكريم له أهميته التي يدركها العقلاء ممن ينتبعون آي الذكر الحكيم وكيف أن تعلق الفعل أو المسند إليه أو المسند مرهون ومتوقف على ما بعده من تقييد لا يمكن الاستغناء عنه، والجار والمجرور لون أو نوع من أنواع التوابع التي تشمل كل ما زاد على ركني الجملة الأساسية من حال أو تمييز أو مفعول به أو ظرف أو جار ومجرور ونحو ذلك من أنواع التوابع والفضلات.

وقد اشتمل الحديث في هذا المبحث على ثلاثة مطالب: الحديث عن مدح المؤمنين أولاً، ثم دعوة المؤمنين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، ثم الحديث عن الإحسان في القصص ثالثاً، والدعوة إلى الخير وتقديم النصح لعباد الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من أجل مضاعفة الأعمال وزيادة خيرها ؛ لأنها من المنافع المتعدية للغير التي يضاعف الله ثوابها.

كما أنها ضمانات حقيقية لصالح الفرد والجماعة واستقامة المجتمع والقضاء على المنكرات والمفسدين في الأرض، ونشر الخير للغير.

وقد جاء تقييد هذين المعنيين في المطلبين المذكورين بالجار والمجرور باعتباره قيداً لازماً للعامل فيهما لا تصح وتتم الجملة إلا به وهذا ما سيوضح من خلال الدراسة والتحليل، وكذلك المطلب الثالث.

المطلب الأول: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق مدح المؤمنين

التقييد بلفظ (بالمعروف) في سياق مدح المؤمنين له دلالاته التي تبرز شدة اهتمام الله تعالى بهذا الأمر الذي عليه قوام الأمة ورفعته وقد جاء الأمر بالمعروف مقروناً في كل سياقات مدح المؤمنين ودعوتهم إلى الأمر بالمعروف

بالنهي عن المنكر وهذا إن دل فإنما يدل على شدة التلازم والتلاحم بين الأمرين وكأنهما وجهان لعملة واحدة.

والتوابع والقيود في النظم القرآني وراء العديد من اللطائف والمزايا البلاغية التي تتجلى للناظر المتأمل والمتدبر الواعي الذي أحسن وألقى السمع وهو شهيد^(١).

وقد امتاز مدح المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخاصية تعد من أبرز مميزات المؤمنين وهي الثبات والرسوخ مبدأ وعقيدة والعزم القوي، الذي يدفعهم للصبر على أذى أهل المنكر.

وحينما يمدح الله قومًا في حياتهم فلاشك أنهم مشمولون برحمته في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣).

جاء تقييد الخيرية لهذه الأمة المحمدية مرتبباً ارتباطاً وثيقاً باتصافها بثلاث صفات هي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وهي قيود سيقف لتأكيد خيرية وأفضلية هذه الأمة على غيرها من سبقها وقد جمع الحق سبحانه بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا المقام وذلك

(١) من بلاغة النظم القرآني د/ بسيوني فيود ص ٥٠.

(٢) سورة التوبة آية: ٧١.

(٣) سورة آل عمران آية: ١١٠.

لعل وفوائد فمن ذلك أن إيمان العبد لا يكمل إلا بهما معاً؛ ولذلك مدحهم بهما معاً في كل السياقات المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق بيان وتقرير إيمانهم ورسوخهم في العقيدة والطاعة لله ورسوله ﷺ وربما يتوهم المخاطب أن أحدهما يغني عن ذكر الآخر لكن الأمر عند التحقيق والتدقيق يكشف عن خطأ هذا الوهم ذلك أن العبد قد يأمر بالمعروف لكنه لا يستطيع مواجهة الآخر المخالف لشرع الله بالكف عن المنكر إما حياءً وإما خوفاً، وإما رهبة من سلطان جائر أو عدو ماهر أو غير ذلك من أسباب وقوع الأذى على المصلح الناهي عن الشر والضرر.

وقدم الحق سبحانه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر لخفته ويسره ومجيء المعنى مسوقاً على هذا السمت والتصوير يفيد حسن التقسيم (١) فبدأ الله تعالى بما يجلب النفع أولاً ثم أردفه بما يدفع الضرر والسوء ثم آخر الإيمان بالله في السياق باعتبار الأمر والنهي أسباب ومقتضيات للإيمان فهما به أقرب رحماً وألصق قراباً.

كما أن في صياغة المعنى بالمضارع في كل معنى يفيد تجدد الأمر والنهي والإيمان فكمال إيمان العبد لا يتحقق إلا باستدامته لهذه الأوصاف لشدة الاحتياج إليها من الحين للآخر وتنوع المواقف التي تحوج المؤمن إلى الالتزام بها جميعاً، أما الإيمان فهو يحتاج إلى مزيد رعاية وعناية وملاحظة النفس وسلوكها؛ لأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ ومن هنا كان تجدده ومراعاته أمراً مهماً.

(١) حسن التقسيم، ويسميه أبو هلال العسكري صحة التقسيم: " وهو أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه " ينظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٧٥ تح د/ مفيد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م.

كما أن بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يسمى عند البلاغيين المقابلة^(١) بين جملتي (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقد أفادت تقرير كمال إيمان الأمة واستحقاقهم المدح بالجمع بين متناقضين لكنهما يجتمعان للمؤمنين.

كما أن في اختيار المعروف قيماً أول للأمر مع إصاق الباء به دلالة بلاغية بيانية هي إبراز مدى لزوم المؤمنين لهذه الصفة وهو ما أفادته دلالة الباء للإصاق^(٢).

وجاء مدح الأمة وبيان خيريتها مقيداً بالجار والمجرور (بالمعروف) أولاً وهو قيد مطلق لإفادة لكل شيء مستحسن شرعاً وعقلاً بخلاف ما لو قال سبحانه مثلاً (تأمرون بصلة الرحم أو حسن الجوار أو غيرها) فهي أخلاق مخصوصة محدودة ومن هنا جاء القيد المطلق عن التعيين مناسباً لكمال الإيمان باستيعاب كل أوجه الحسن والخير، واجتناب كل أوجه الشر والمنكر شرعاً وعقلاً وهو ما أفاده القيد الثاني (وتنهون عن المنكر) وأردفهما بالإيمان بالله دون تخصيص شيء يتعلق به لبيان أن الإيمان به يستوجب كل ما أمر به ونهى عنه وكل ما وجب في حقه واستحال وجاز دون تخصيص الإيمان بالغيب أو بالرسول مثلاً لتضمن الإيمان به كل ذلك وما عداه.

ولعلنا نلاحظ المقارنة بين الأمة المحمدية وبني إسرائيل (اليهود والنصارى) من خلال تتبع السياق القرآني الملفوظ حيث أتبع الله تعالى مديح المؤمنين بذكر

(١) المقابلة: "وهي إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة" ينظر: المرجع السابق ص ٣٧١.

(٢) الإصاق معنى لا يفارقها فهذا اقتصر عليه سيبويه، ثم الإصاق حقيقي كأصقت يزيد إذا قبضت على شيء من جسمه، ومجازي مثل: مررت يزيد: أي أصقت مروري بمكان يقرب من زيد، ينظر: مغني اللبيب ١/٩٥.

حال أهل الكتاب فحكم سبحانه بفسق أكثرهم وإيمان القليل منهم ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فوصفهم بالفسق الناتج عن فقد الإيمان وترك الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذا ذمهم في سياق آخر في قوله سبحانه ﴿لَعْنِ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

قوله سبحانه ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ... الآية﴾ مما اختلف في إعرابه النحاة
والأقرب للصواب هو إفادة الاستئناف "هي استئناف أو حالية والاستئناف أمكن
للمدح"^(٢).

الآية الثانية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

مدح الله المؤمنين والمؤمنات بأوصاف غاية في الكمال فهم يتناصرون
ويتحابون في الله؛ ويأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ﷺ وينهون عن عبادة
الأوثان والشياطين وسواهما فضلاً عن إدامتهم لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
المفروضة، وطاعة الله ورسوله.

هذه الآية قد بلغت قمة البلاغة نظماً وبيانياً، فقد أسس المولى سبحانه وصدر
بذكر وصف الإيمان لمن أراد الحديث عنهم ورتب عليه أوصافاً لا تتفك عنهم
ولا تفارقهم وهي ولاية بعضهم للبعض ونصرتهم لهم فيما يرضي الله تعالى ثم

(١) سورة المائدة آية رقم: ٧٨، ٧٩ .

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢٩٦/١١، محمد عبد الخالق هزيمة تصدير محمود
محمد شاکر، ط دار الحديث - القاهرة بدون تاريخ.

(٣) سورة التوبة آية رقم: ٧١.

عقب جل جلاله بوصفهم بأجل الأوصاف وأعظمها، وذلك لكونها منفعة للغير ومعلوم أن النفع المتعدي أعظم أجراً وأنفع لصاحبه من النفع الذاتي الشخصي؛ لذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صدارة ذكر أوصاف المؤمنين والمؤمنات وجاءت الآية مستأنفة (بالواو) العاطفة على الآية السابقة التي سيقى للإنكار على مشركي قريش في قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أفادت عطفًا مغايرًا لحال المنافقين وأبانت عن مدح المؤمنين على جهة التضاد والمغايرة.

كما يلحظ أن سياق الآيات قد وردت في تعداد أصناف الناس، فمنهم المنافقون ووصفهم على نقيض وصف المؤمنين، انظر قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾^(١) و(عن) تفيد الكف عن الشيء، كل هذه المتقابلات تبرز قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم انظر كيف أفادت الباء في قوله سبحانه (بالمعروف) في حق المؤمنين الإصاق والملابسة، وكيف أفادت البعد والكف عن المعروف في شأن المنافقين.

وقد جمع الله تعالى بين صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتلازمهما في هذا المقام إذ إن الأمر بعبادة الله وحده يستلزم أن ينهى عن عبادة غيره من الأصنام وغيرها فالصفتان مع تباينهما في المعنى إلا أنهما متسقتان مفهوماً ودلالةً وتلازماً قال الدكتور هزيمة منبهاً على قيمة العطف بين الصفتين المجموعتين والمعطوفتين بالواو "وإن أريد الجمع بين الصفتين أو التثنية على تباينهما عطف بالحرف"^(٢).

(١) سورة التوبة جزء آية: ٦٧.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٦٥/١٠ .

وجاءت الباء الجارة للفظ (المعروف) لتفيد الإلصاق ونفي البعد .

ويلحظ أن الأمر بالمعروف هنا قد أتى بصيغة المضارع كما ورد في الآية السابقة في التحليل؛ وذلك لإفادة ثبات المؤمنين والمؤمنات على عقيدتهم وولائهم لإخوانهم مع تكرر أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وما وليه من صفات.

ويلحظ هنا أنه سبحانه قدم المقتضيات على النتائج والجزاء وهو الترتيب الطبيعي فقال في نهاية الآية ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بينما قدم سبحانه المسبب والنتيجة في آية الخيرية للأمة المحمدية وسر ذلك أنه سبحانه قد بين في هذا السياق أحوال المنافقين المشركين وعقب بعقابهم وعجله، ثم أبان عن أحوال المؤمنين وعقب بذكر ثوابهم فذكر رحمته بهم وأبان عن مظاهر تلك الرحمة في الآية اللاحقة على هذه الآية قائلاً سبحانه ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بينما أصر ذكر الأوصاف في آية الخيرية لأنه أراد ذكر البشارة للأمة بتقرير خيريتها وتفضيلها على سائر الأمم ثم ذكر مستلزمات تلك الخيرية وهذا الاصطفاء.

واصطفى جل وعلا كلمة (بالمعروف) دون غيرها هنا لإفادة الشمول للعقائد الصحيحة والأخلاق الحميدة على السواء، لأن السياق يقضي بحمل المعروف على هذا الوجه من العموم إذ إنه بمقابلة سياق فيه ذكر لأحوال المنافقين الذين تختلف عقائدهم عن ظواهر أحوالهم من الإيمان المزعوم فضلاً عن سوء أخلاقهم.

فالولاية تقتضي إيماناً و يقيناً ومحبة وتضحية وتناصحاً وهو ما لا يليق بحال المنافقين، ولذا نزع عنهم صفة الولاية وأضافها للمؤمنين والمؤمنات وهذه الولاية تفضي إلى الدعوة إلى الخير والتزام المنهج الرباني وتنتهي عن الشر والمنكرات؛ ولذا حسن إرداف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها.

الآية الثالثة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وردت الآية في سياق تقسيم طوائف المجتمع في تلك الحقبة الزمنية فالسياق السابق يتحدث عن الأعراب المنافقين المردة، والأعراب المؤمنين وعن منافقي المدينة وعن الذين اتخذوا المسجد الضرار والذين بايعوا رسول الله ﷺ على القتال واشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة كان الحديث عن طائفة لم تقاتل لكنها محمودة مباركة أهل توبة وعبادة وحمد وسياحة وصلاة وأمر بمعروف ونهى عن منكر وحفظ لحدود الله تعالى.

ويلحظ أن الصفات الواردة في الآية سيق بعضها معطوفاً بالواو وبعضها بدون العطف ولهذا سره كما قرر ذلك د/ هزيمة قائلاً " الصفات تارة تتسق بحرف عطف وتارة تذكر بغيره، ولكل مقام ما يناسبه فإذا كان المقام تعداد صفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف، وإن أريد التنبية على تباينهما عطف بالحرف وكذلك إذا أريد التنويع لعدم اجتماعهما أتى بالحرف أيضاً" (٢).

قوله سبحانه ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقد صيغ الأمر والنهي عن طريق اسم الفاعل (الأمرون، الناهون) لتقرير ثبوت هذين المعنيين المتلازمين دون تأكيد وإلا لصاغها عن طريق صيغ المبالغة مثل (أمارون – ونهاه) كما أنه أسقط العطف ليدل على شدة التلاحم بين الصفتين، واللحمة القوية بينهما، ونظيره قول الله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (٣).

(١) سورة التوبة آية: ١١٢.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٦٥/١٠.

(٣) سورة غافر آية: ٣.

وعدد سبحانه أوصاف المؤمنين قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون ذكر بحرف عطف لكونها كالصفة الواحدة؛ ولذا صح جمعها دون العطف أما في الأمر بالمعروف فلم يحق إسقاط الواو العاطفة لتغاير المعنى الظاهر من الأمرين.

واختار الله تعالى (الجار والمجرور) (بالمعروف) تنصيماً وتأكيداً على أهميته وشدة احتياج الناس إليه وعدم غنائهم عنه ونظيره النهي عن المنكر الذي يحتاج إلى المصلحين أكثر من الصالحين لاصطدام صاحبه بأهواء المسرفين وصخور عاداتهم القبيحة.

كما أن مادة المعروف من (عرف) "ذلك أن لفظ المعرفة يفيد تمييز المعلوم من غيره"^(١) ولذلك فإن وجوه الخير والبر متميزة عن أوجه الشر والمنكر القبيحة يدركها ذوو العقول الرشيدة.

الآية الرابعة: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وردت الآيتان في مدح المؤمنين من أهل الكتاب فقد اكتمل المعنى والمراد بذكر أصناف الناس وبيان عاقبة كل حيث ورد قبل هذا السياق ذكر خيرية الأمة وأفضليتها في الآية ١١٠ من سورة آل عمران ثم أعقبها بوصف حال السواء الأعظم من أهل الكتاب وهم الفاسقون فقال سبحانه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم جاء في هذا السياق ليستثني منهم فئة مؤمنة " قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه

(١) الفروق اللغوية تأليف أبو هلال العسكري ٩٤ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط

أولى ٢٠٠٠م، ١٤٢١هـ.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٣.

متبعة نبي الله فهي قائمة أي مستقيمة ... وقد نزلت هذه الآيات فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وغيرهم^(١).

قدم سبحانه وتعالى ما يدل على استقامة طائفة من أهل الكتاب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارة في الخيرات، وقدم تهجدهم وتلاوتهم آيات الله على ذلك أيضاً، والسر في ذلك أن الاستقامة هي الأصل في صلاح الأعمال والأقوال وصلاة الليل وتلاوة القرآن هما: الدافع والوقود الذي يحرك صاحبها لفعل كل ما يرضي الله ويحقق له أعالي الأمور؛ ولذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وسارعوا في الخيرات فاستحقوا المدح والوصف بالصلاح قال سبحانه مختتماً الآية ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فختم سبحانه بثبوت الوصف وتحققه.

ويظهر في الأسلوب مجيء الأفعال كلها بصيغة المضارع الذي أفاد تجدد الحدث في كل فعل فهم لا يفعلون تلك الأعمال مرة ويتركونها الأخرى بل إنهم دوماً يكررون فعل الصالحات.

ومن دقة الأسلوب القرآني حصول الإجمال بعد التفصيل عن طريق القيود الواردة في الآية الثانية حيث قيد الأمر (بالمعروف) وقيد النهي (بالمنكر) وقيد المسارعة بـ(في الخيرات) فاتحد القيد بالجار والمجرور ليفيد الإجمال في كل، فالمعروف والمنكر والخيرات عموميات تشمل كل أمر مستحسن أو مستنبح أو متخير من أبواب البر.

وقد تواطأ التعبير على هذا النحو ليشي بلون من الانسجام والاتساق الذي يعطي الأسلوب جمالاً وبهاءً وحسناً وبياناً.

وقد عطف بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإظهار التمايز بين الشيين "وأيضاً لما كان الأمر والنهي ضدّين، أحدهما طلب الإيجاد والآخر طلب الإعدام كانا كالنوعين المتغايرين فحسن العطف"^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/١١٣، تحقيق محمد علي الصابوني .

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم د/ هزيمة ١٠/٤٦٤.

وسمى الله تعالى الدعوة إلى الله والتماس الطاعة لله من عباده أمراً فقال:
﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولعل السر في ذلك أنه لشدة تأثيرهم في الناس بموجب
إخلاصهم وقوة إيمانهم كان كلامهم كالأمر للناس على جهة الاستعلاء.

الآية الخامسة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١).

مدح الله طائفة من أمة محمد وهم المهاجرون الذين ظلموا مرتين الأولى
حينما أخرجهم الكفار من بيوتهم مذلولين والثانية الاعتداء عليهم وعلى أهلهم
وأموالهم واستباحة ممتلكاتهم قال تعالى قبل هذه الآية ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
بِغَيْرِ حَقِّ﴾ (٢) وقال سبحانه قبلها مباشرة ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا﴾ (٣).

وقد جاء الأمر بالمعروف في الآية في جملة جواب الشرط (إن) وفعله
(مكناهم) ولعل اصطفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حقهم متناسب
مع حالهم؛ لأن المشركين أساءوا لهم وفعلوا بهم كل منكر فكان حقيقاً عليهم بعد
التمكين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر بكل وجوهه وصوره لتجرعهم
مرارة الاعتداء الذي ينكره من في قلبه ذرة من إيمان.

ومما هو بين في الأسلوب أنه صيغ كل فعل به عن طريق الماضي الذي
أفاد التحقق وتقرير الفعل وهو من باب التنويع في الأسلوب من ناحية أخرى.

فجاء في الآيات السابقة (يأمرن بالمعروف) و(الأمرون بالمعروف) وجاء
هنا (أمرن بالمعروف) وسيأتي معنا صياغته عن طريق الأمر ولكل حادث
حديث وهذا التنوع لم يأت اعتباراً بل لكل صياغة دلالتها كما يظهر خلال

(١) سورة الحج: ٤١.

(٢) سورة الحج: ٤٢.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

التحليل والدراسة وتكرار التقييد بالباء في الآيات المتعلقة بمدح المؤمنين يفيد رسوخ المعنى وتقريره وتأكيده " وأكد نفيه بالياء، ونحوه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ (١) .

وهذا التعبير بالمضي مع وقوعه في سياق الجملة الشرطية يفيد ثبات حال الممدوحين وكأنه لا تتناوبهم تغيرات أو تحولات عن سلوكهم المحمود ؛ ولذا حسن مجيء الماضي في كل أفعال جواب الشرط.

ومفهوم هذا التأكيد للأمر والنهي إذا اجتمعا منصوص عليه في الصناعتين " واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ " (٢) .

ومن هنا جاء النظم القرآني فريداً بجهة توكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاصة إلحاق باء الجر بلفظ المعروف لإفادة الالتحام والإصاق بالمعنى وعدم انفكاكه عنه.

الآية السادسة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣) .

وردت الآية تحكي حال الطائفة اليهودية المختارة في قوله سبحانه من نفس السياق ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ ثم قوله ﴿وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ

(١) الإيضاح في علوم البلاغة جـ ١/١٩٢ للخطيب القزويني / شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي طبعة دار الكتاب اللبناني، ط الثالثة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، وبعض آية ٣٧ من سورة المائدة.

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ١٧٣، تح د/ مفيد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان، ط ثانية ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٥٧.

الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴿﴾ آمنت هذه الطائفة برسول الله ﷺ واتبعته قال ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فجمع الله له ﷺ بين ممدوحتين في نظم واحد دلالة على عظيم شأنه.

كما أن في تصدير مديحه ﷺ بهاتين الصفتين دلالة أخرى وهي ضرورة تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل منفعة أو مصلحة حياتية أو شرعية فالفلاح مرهون بها في كل مناحي الحياة وصلاح الآخرة، كما أن في تصديرهما فائدة أخرى وهي أن بني إسرائيل كثرت فيهم المخالفات والآفات وكان الفاسقون وهم كثير لا يتناهون عن المنكر فكان من الألق بالمعني والأوفق بالسياق المعنوي أن يتقدم مدح النبي ﷺ بهما .

وقال سبحانه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وفيه فوائد منها أنه ﷺ كان يعاودهم ويجدد لهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الحين الآخر وهو ما أفاده التعبير بالمضارع، ومنه أن المعروف جاء معرفاً بـ(أل) التي أفادت الجنس أي جنس كل مستحسن لذوي البصائر والعقول، فاستغرق التعبير بها جنس الخصال الطيبة في جهة الأمر، واستغرق التعبير بالنهي جنس الصفات. القبيحة المنكرة.

المطلب الثاني: بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق دعوة المؤمنين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من أخص خصوصيات الدين وإقامة أركانه في أي ملكة أو عقيدة في كل زمان ومكان هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه صلاح المجتمعات ؛ ولذلك أمر الله به المؤمنين ودعا الأمة إلى انتخاب طائفة تتصدر المشهد وتعظ الناس؛ ليستقيم حال الأمة قال ابن كثير في معرض حديثه عن تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ ﴿﴾ ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والمقصود من الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه^(١).

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دعا الله تعالى المؤمنين إلى أن تكون منهم طائفة ترشد الناس للخير وتدعوهم إليه وتأمرهم بكل معروف وتنههم عن كل منكر ووصفهم بالمفلحين.

يلحظ في الآية تمايزاً عن غيرها مما سبق تحليله من حيث تمحضها واختصاصها بدعوة المؤمنين إلى الدعوة للخير والأمر به والنهي عن المنكر. والدعوة للخير معنى يتضمنه الأمر بالمعروف غير أن لاختيار الأمر بالمعروف، خاصية تفوق الدعوة إليه؛ ذلك أن الأمر يفيد شدة الدعوة وتأكيداً وكأنها تأتي من جهة الفوقية والاستعلاء وحقاً إن من يتصدر الأمر بالمعروف جدير بأن يكون في مقام العلو والرفعة لجلال ورفعة ما يدعو إليه ويأمر.

أما الدعوة إلى الخير فمع حسنها وكمال فضلها فإنها مشمولة بالدخول تحت الأمر بالمعروف، وأما النهي عن المنكر فهو مشمول بالدخول تحت المعنيين السابقين من الدعوة والأمر بالمعروف ضمناً غير أن الحق سبحانه ذكاه تأكيداً على أهميته ونصاً على التزام الداعي به.

ولعلة ثانية وهي أن العبد قد يأمر بالخير والمعروف ويدعو إليهما ولكنه لا يقوى على مواجهة أهل البغي والمنكر لتحقيق الضرر أو احتمالها.

فجاء الأمر من الله أن تختص طائفة من كمل الإيمان والرسوخ لتصدر هذه المهمة القاسية التي هي مهمة الأنبياء المرسلين أولاً ثم من ورثهم من العلماء الصادقين ذوي القلوب المؤمنة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣٠٦/١ تح/ محمد علي الصابوني.

ومما يلحظ أن الحق سبحانه حذف متعلق الفعل (يأمرون) وهو المفعول به وتقديره (الناس) للعلم به وعدم الاحتياج لذكره إيجازاً في الكلام.

وأفاد حرف الجر (الباء) في (بالمعروف) الملابس والتي أفادت أهمية الملازمة للدعوة والأمر بالخير والمعروف وعدم ترك تلك الطائفة له؛ لأنه بتركه فساد الأمة وتردي أخلاقها.

وقد سيقت الآيات السابقة مدحاً للمؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنها وردت داخل جملة أوصاف لهم كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمسارعة في الخيرات، وطاعة الله ورسوله ﷺ، وغير ذلك من الأوصاف الجليلة والأخلاق الحميدة، بينما ورد الوصف هنا مختصاً بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن المعنى يتعلق بطائفة مخصوصة من المؤمنين وليست لعموم المؤمنين؛ ولذا قالوا: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين.

الآية الثانية: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١).

هذه بعض وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه بدأها الحق بتحذير لقمان لابنه من الشرك ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) وأبان سبحانه بعدها وصيته بالوالدين ثم انتقل إلى استكمال وصايا لقمان لابنه، فأوصاه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب .

وقد ذكر ابن كثير علة اختتام الآية بالصبر على المصائب قائلاً: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس

(١) سورة لقمان آية: ١٧ .

(٢) سورة لقمان آية: ١٣ .

أذى فأمره بالصبر، وقوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور^(١).

وقد ورد بالفعل (وأمر) على سبيل التودد والتحبب فخرج الأمر من معناه الحقيقي للمجازي لورود الأمر بالمعروف في سياق العظة والإرشاد للخير ويظهر من التعبير بلفظ (بالمعروف) أنه قيد للفعل (وأمر) أبان عن ماهية الأمر فأزال إبهامه ولولا وجود القيد (الجار والمجرور) هنا ما علمنا طبيعة المأمور به.

وأفاد العطف بالواو في قوله ﴿وَإِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الجمع بين المتغايرين فالأول أمر والثاني نهى وهما متضادان إلا أن كل واحد منهما مكمل للآخر و متمم له. والعظة بالأمر بالمعروف عن المنكر من عزائم الأمور وأعاليتها ويحتاج إلى قوة إيمان ورسوخ مبدأ وعقيدة؛ ولذا جعل المولى سبحانه من عزم الأمور فأكد ذلك بـ(إن) للتأكيد، وإسمية الجملة، واسم الإشارة الذي أفاد بعد مكانه الصبر على الأذى الذي هو نتاج الأمر والنهي.

وقول لقمان ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ له وجاهته فلفظ (بالمعروف) لا غنى عن ذكره ولا يصح الأسلوب لفظاً ومعنى بدون ذكره فقد أفاد ذكره طبيعة المأمور به وإلا لكان الكلام ضرباً من العبث وأصابه الخلل فمع كونه قيداً تابعاً للعامل وهو الفعل (وأمر) إلا أنه ليس كل قيد يمكن الاستغناء عنه.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أدوات المصلحين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً بل يبتغون وجه الله، ويحبون الخير لأنفسهم وللناس أجمعين فكان ذلك دافعاً لهم لينطلقوا إلى الغاية السامية وتوجيه الناس لمحاب الله والبعد عن نواهيه.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ج ٣/٦٦.

ومن هنا نجد أن لقمان الحكيم قد صدر وصاياه لابنه بالنهي عن الشرك ثم وعظه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في تحقيق تلك الغايات النبيلة على المصائب.

وكما وصى لقمان ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصى الله الإنسان بمصاحبة والديه الكافرين بالمعروف حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١) فنفى اتباعهما في الكفر وأمر بحسن معاملتهما لحقوقهما على الولد وأطلق المعروف ونكره ليشمل كل إنسان.

كما أن المعروف قد ورد في سياق مبايعة النساء للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾^(٢) فوصى الله بهذه العهود للنساء وخاطب نبيه ﷺ بالتزامها مع النساء في البيعة وجر (معروف) بحرف الجر (في) لإفادة الظرفية والتداخل في وجوه الخير كلها وهو ما أكدته تكرر لفظ (معروف) .

المطلب الثالث: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور(بالمعروف) في سياق الحديث عن الإحسان في القصاص:

شرع الله القصاص للحفاظ على الأنفس، ونبذ العداوة والتناحر التي وجدت في العصر الجاهلي، فأراد الله القضاء على تلك العادات السيئة والتي تسبب الخراب والدماء والهمجية والقضاء على الأنفس، فمن الله على أمة محمد ﷺ بخاصية (القصاص) بل وخيرها بين القصاص أو الدية أو العفو، ولقد لعب الحال دوراً عظيماً في مشروعية التخيير وحثها على العفو ذلك للاحتفاظ بالأخوة حتى لو كان قاتلاً.

(١) سورة لقمان جزء آية: ١٥.

(٢) سورة الممتحنة آية: ١٢.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ
وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ
بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وعبر بالمفعول به في (شيء) للعموم، أي: " أي شيء كان من العفو
بالنزول عن طلب الدم إلى الدية " ^(٢) .

(فاتباع بالمعروف) أي: فعلى ولي المقتول " اتباع بالمعروف في المطالبة
بالدية، وهو ترك التشديد على القاتل في طلب الدية " . ^(٣)

ثم إن (بالمعروف) وهي في محل نصب على الحال من الهاء المحذوفة
تقديره: فعلية اتباعه عادلاً والعامل في الحامل في معنى (الاستقرار) ^(٤) ومن
المعروف القيد بالحال (بالمعروف) حث على القبول، وحسن موقعه في النفس،
يقول صاحب نظم الدرر " ما شهد عياناً لموافقتة، وبقبول موقعه بين الأنفس فلا
يلحقها منه تكرر " ^(٥) .

كما أفاد الحال (بالمعروف) " من طلب الدية بالرفق والمعروف الذي لا
يستنكره الناس " ^(٦) .

ولهذا أمر أيضاً بعد المطالبة بالمعروف الأداء إليه بإحسان وهي " المطالبة
بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان من غير مماطلة وتأخير في الوقت " . ^(٧)

(١) سورة البقرة آية: ١٧٨ .

(٢) نظم الدرر ٢٧/٣ .

(٣) تفسير الوسيط للواحدى ٢٦٥/١ .

(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢٥٥/٢ .

(٥) نظم الدرر ٢٧/٣ .

(٦) تفسير المراغي ٦٣/٢ .

(٧) تفسير القرطبي ٢٥٢/٢ .

وحدث على حسن المعاملة بين المؤدى، والمؤدى إليه فلذلك " سمي القاتل في أول الآية مؤمناً، وفي وسطها أخاً، ولم يؤيسه آخره من التخفيف"^(١) على الجميع فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: رحمة لأولياء القتيل؛ لدية، وللآخرين بالعفو عن الدم"^(٢).

ولقد صور صاحب النبأ العظيم الأسرار واللطائف في تلك الآية مشير إلى ما أشاعه الحال (بالمعروف) في الآية فقال: " الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ترقيق العاطفة بين الواترين والموترين في قوله ﴿أَخِيهِ﴾ وقوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ والامتتان في قوله ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والتهديد في ختام الآية ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة مسألة دموية"^(٣).

فكل هذه القيود المتعاقبة كانت كلها تحث على العفو، والتخفيف، وعدم التخلي عن الروابط الأخوية بين ولي الدم والقاتل.

(١) تفسير الوسيط للواحدى ٢٦٦/١.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٨/٣.

(٣) هامش النبأ العظيم ١٥٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

فهذه أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١- جاء التقييد بالجار والمجرور في قوله "بالمعروف" في كل الآيات معرفة بأل لشهرتها، ولكونها من الأمور المعلومة المألوفة والمألوفة، وأن الذهن اذا تهيأ إلى الشيء تلقفه بالقبول ومما يلاحظ أيضا أن قوله "بالمعروف" جاءت مجرورة في كل المواضع بالباء للملابسة فهي تفيد التلبس والإصاق بالشيء وعدم الانفكاك عنه، ولما تفيد من منازعة الأهواء الضارة وإزالة الاخلاق السيئة.

٢- مجيء "بالمعروف" في السور المدنية خصوصا سورة البقرة؛ لأن الإسلام أراد إنشاء مجتمع جديد بوضع تشريعات له قائمة على المحبة والاتحاد وهدم العادات الجاهلية المذمومة وخاصة فيما يتعلق بالمرأة ورفع المعاناة عنها وتكريمها.

٣- جاء قوله " بالمعروف" في أواسط الآيات لربط أولها بأخرها لإفادة معنى الترابط والتعلق ما بين أول الآية وآخرها فيدل بذلك على أهمية التمسك به وعدم الانفكاك عنه.

٤- تعانق القيد بالمعروف مع واو العطف كثيرا وذلك لإفادة الترابط والجمع وعدم التفريق ليتحقق التآلف والاجتماع بين الأفراد والجماعات وتأكيدا على التمسك بالمعروف.

٥- جاء قوله (بالمعروف) في آيات الطلاق وذلك لنشر روح الرحمة والإحسان وضمانا لحقوق المرأة ومراعاة حالة الزوج من حيث العسر واليسر .

- ٦- أفاد قوله "بالمعروف" التخفيف من القصاص إلى الدية أو العفو توثيقاً لروح الأخوة بين المسلمين ورأباً للصدع بين ولى الدم والقاتل.
- ٧- أفاد قوله (بالمعروف) اللطف والرفق والرحمة ونبذ العنف وخاصة فيما يتعلق بالمرأة والأولاد.
- ٨- جاء الجار والمجرور (بالمعروف) قيداً لازماً وضرورياً لصحة المعنى وتمامه وليس فضلة من الكلام إذ كان المقصود من الكلام إثباته فلا يمكن الاستغناء عنه في سياقه لعدم غناء المعنى عنه.
- ٩- لوحظ اقتران الأمر بالمعروف مع النهي عن المنكر في المبحث الثاني واضحاً جلياً وهو ما يفيد أن الأمر بالمعروف لا يستغني عن النهي عن المنكر وهو ما جاء عن طريق حسن التقسيم، والجمع بين المتناقضين لصحة اقترانهما وعدم تعارضهما وصفاً للممدوح، ويضاف إليه أنه أتى بصيغة بلاغية راقية تسمى المقابلة التي كشفت عن أوجه المدح وأشكاله المتعددة من أوجه الاقتران.
- ١٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلب شرعي أمر به الشارع الحكيم وحثت عليه الديانات السماوية كلها ونالت به الأمة المحمدية الخيرية على سائر الأمم حيث قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، كما أن التخلي عن هذا الوصف مدعاة للذم واللعن قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

(١) سورة المائدة آية: ٧٨ .

١١- ورد التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في أكثر صورهِ حالاً مما يدل على أن المقصود من الكلام هو إثبات وتقرير الوصف الذي أريد ذكره وأنه هو مناط الاهتمام وليس العامل في القيد بل القيد هنا هو المطلوب والمراد وعليه معول الكلام وصحة المعنى واكتماله، وفي هذا بيان لأهمية وضرة القيد.

١٢- ورد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جامعاً بين صيغ اشتقاقية متنوعة منها الفعل المضارع مثل (يأمرون .. وينهون) والماضي في (أمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر) والأمر مثل (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) واسم الفاعل (الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) وفي هذا دلالة على أهمية هذه المهمة الجليلة ولكل صيغة دلالاتها الفرعية التي برزت خلال التحليل.

فهرس المصادر والمراجع

- ١- أثر السياق في اصطفاء التعبير بالسعي والمشي في النظم القرآني د/ أحمد سيد طلحة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م (د - ط) .
- ٢- أحكام القرآن للجصاص تح د/ عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٣- أساس البلاغة للزمخشري تح د/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
- ٤- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) علق عليه الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة (د - ت)، البلاغة فنونها وأفنانها: حسن فضل عباس.
- ٥- الأصول في النحو لابن السراج، تح د/ عبد الحسين القفطي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، (د - ت)
- ٦- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني / شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي طبعة دار الكتاب اللبناني، ط الثالثة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م،
- ٧- البحث اللغوي عند العرب د/ أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط ٨، ٢٠٠٣م.
- ٨- البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي، تح د/ صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ٩- تاج العروس للزبيدي، تح/ مجموعة من المحققين، دار الهداية (د - ت) .
- ١٠- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.
- ١١- تفسير البيضاوي للبيضاوي، تح د/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ .

- ١٢- تفسير الثعالبي للثعالبي، تح الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.
- ١٣- تفسير الثعلبي للثعلبي تح الإمام علي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ/ نظير الساعدي، الناشر دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م.
- ١٤- تفسير القرطبي للقرطبي، تح د/ أحمد البردوني - د/ إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ١٥- تفسير المراغي للمراغي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- ١٦- تفسير المنار / محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ .
- ١٧- التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط ١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- ١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تح د/ أحمد البردوني - د/ إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ١٩- الجنى الداني في حروف المعاني للمراي، تح د/ فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- ٢٠- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط ٧، (د - ت).
- ٢١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح د/ أحمد الخراط، دار العلم، دمشق (د - ت).
- ٢٢- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق هزيمة تصدير محمود محمد شاكر، ط دار الحديث - القاهرة بدون تاريخ.

٢٣- درج الدرر في تفسير الآي والسور لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني دراسة الفاتحة والبقرة د/ وليد بن أحمد بن صالح الحسين،، ط ١١، مجلة الحكمة ببريطانيا .

٢٤- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تح/ الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط ٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٥- شرح تسهيل الفوائد لابن مالك الطائي، تح د/ عبد الرحمن السيد - د/ محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٦- شرح صحيح البخاري لابن بطلال باب موعظة الرجل لابنته لحال زوجها.

٢٧- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تح د/ مفيد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، طبعة ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢٨- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، تح د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د - ت): باب ما كان النبي ﷺ، رقم الحديث ٦١.

٣٠- فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ .

٣١- فيض الباري على صحيح البخاري، تح د/ بدر الميرغني، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م حديث رقم (٥/٨٨) باب (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) .

٣٢- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣ .

- ٣٣- كشف المشكاة من أحاديث الصحيحين للجوزي تح / علي حسين البواب،
رقم الحديث ٢٥٧٦، دار الوطن، الرياض (د - ت).
- ٣٤- الكليات للكفوي، تح د/ عدنان درويش - د/ محمد المصري، مؤسسة
الرسالة - بيروت (د - ت).
- ٣٥- لسان العرب لابن منظور، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ، مادة
(ودد).
- ٣٦- لطائف الإشارات للقشيري تح د/ إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة
للكتاب - مصر، ط ٣ (د - ت) .
- ٣٧- اللحة في شرح الملح لابن الصائغ، تح د/ إبراهيم بن سالم الصاعدي،
عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المملكة
العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ٣٨- متن الأجرومية لابن آروم، ص ١٦، دار العصيمي، ١٤١٩هـ -
١٩٩٨م.
- ٣٩- المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، تح د/ عبد السلام عبد الشافي
محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- ٤٠- مختصر تفسير ابن كثير، تح/ محمد علي الصابوني، طبعة دار التراث
العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- ٤١- معاني القرآن للزجاج تح د/ عبد الجليل شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط
١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ٤٢- مغني اللبيب عن كتاب الأعراب لابن هشام، تح د/ مازن المبارك - د/
محمد علي حمد الله دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٩٨م.
- ٤٣- مقاييس اللغة لابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ -
١٩٧٩م.

- ٤٤- من أسرار التعبير في القرآن الكريم د/ عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- ٤٥- من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي، نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٥م .
- ٤٦- من بلاغة النظم القرآني، تأليف د/ بسيوني فيود، ط ١٤٣٠هـ - ١٩٩٢م.
- ٤٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د-ت).
- ٤٨- الواضح في أصول الفقه لأبي الوفاء البغدادي الطفري، تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	المقدمة
٢	التمهيد
٣	المبحث الأول: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن العلاقات الأسرية.
٤	المطلب الأول: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الحديث عن النكاح وامتعة الطلاق.
٥	المطلب الثاني: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الرضاع والنفقة بعد الطلاق وعدة المتوفى عنها زوجها
٩	المطلب الثالث: بلاغة التقييد (بالمعروف) في سياق الحديث عن الوصية والوصي.
٧	المبحث الثاني: من بلاغة التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن المؤمنين.
٨	المطلب الأول: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق مدح المؤمنين.
٩	المطلب الثاني: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
١٠	المطلب الثالث: التقييد بالجار والمجرور (بالمعروف) في سياق الحديث عن الإحسان في القصاص
١١	الخاتمة
١٢	فهرس المصادر والمراجع
١٣	فهرس الموضوعات